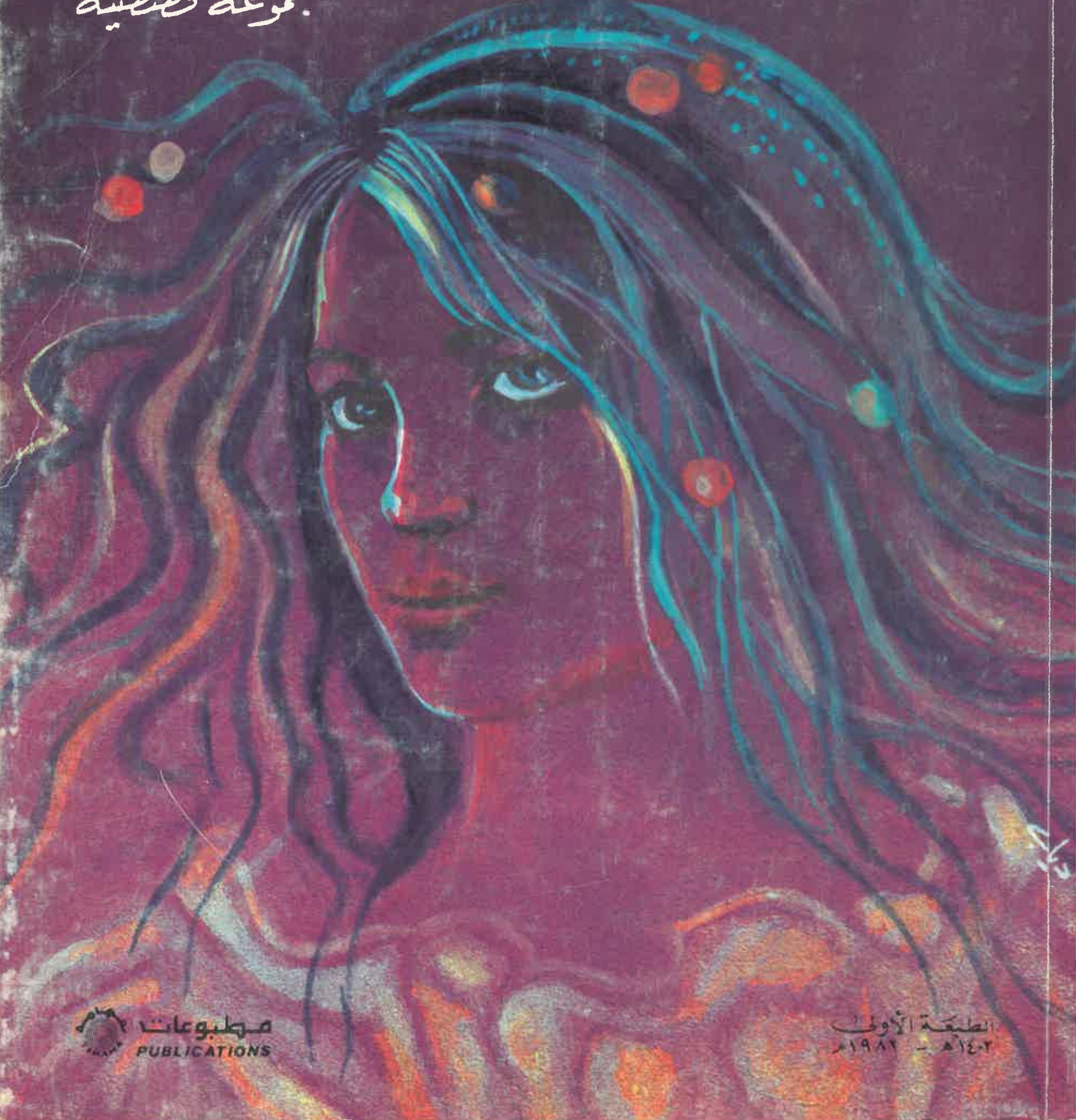
فؤاد عبد الحميد عنقاوي

أيام مبعثرة

مجموعة قصصية



مطبوعات
PUBLICATIONS

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

فؤاد عنقاوي

أيام مبعثرة

مجموعة قصصية

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
جدة - المملكة العربية السعودية

مطبوعات تهامة
TIHAMA
PUBLICATIONS

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية

ص.ب : ٥٤٥٥ - هاتف : ٦٤٤٤٤٤٤

أيام مبعثرة

مجموعة قصصية

مُقـدِّمة

بقلم : عبدالله جفري

تطايرت عدة اتهامات ترصد الكثير ممّا ينشر بين دفتي كتاب، وتسدد إلى أسماء بعض الكاتبين، بقصد النيل من الشخص، وتجاوز انتقاد العمل الأدبي كإبداع أو كإفجاع، فاختفى فن النقد، واستمر نقد الفن، وتطاول حتى بات الحكم على الكلمة وكاتبها زقاقاً مكتظاً باللغط!

وفي هذا القتار من اللغط ضاع فن النقد، وتدفقت الكلمات المهدرة، والكلمات المستكينة، والكلمات الجارحة، والعبارات التي تآكلت أطرافها، ومثلما يقولون: لقد اختلط الحابل بالنابل... فلست تعرف اليوم من الذي درس فن النقد وتعمق فيه، ومن الذي ركب فوق الموجة باسم النقد، والكتابة أيًّا كانت، وجمح بهما!

وأعترف أن الكثير من النقد ضل الطريق إلى الموضوعية والفكرة المجردة من الهوى والانفعال، وانحصر في دائرة التجريح وتناول الذات والارتباط بالعنعنات الشخصية، والثارات القديمة بين كاتب وناقد.

إن التجرد لم يعد يمنح الشهرة والذيوع، وأحسب أنها سحنة أو موضة العصر، فالشتم هو ميكروفون العصر سواء عبر الكلمة المقروءة أو المسموعة، وأصبح النيل من كاتب هو براعة جهيرة لكي تأخذ الكثير ممّا لا تتوقعه ولا تمتلكه أيضاً، وتُسلب الكثير ممّا هو حق خاص، وخلق مرهق، كأنّما نحن نعايش البلطجة الفكرية!

* * *

لذلك كلّه، فقد شعرت بالحرج الشديد عندما طلب منّي الأخ الأستاذ «فؤاد عنقاوي» أن أكتب مقدمة لمجموعته القصصية الجديدة هذه بعنوان: «أيام مبعثرة».. ذلك أنّني أنظر إلى كل عمل أدبي يقدمه كاتب، هو محاولة تستحق التقدير والالتفات والرعاية، وكل عمل أدبي – مهما بلغت نسبة الإبداع فيه – لابد أن يتعرض للنقد، وأن يجد نقّاداً يفتشون فيه عن المثالب والسقطات. ولكننا – في هذا كلّه – نعتقد أن التطلع إلى الأصالة الفكرية، وإلى الإبداع المتكامل قضية يتناولها الكثير من ممتهني النقد بغير لغتها، وبغير جغرافيتها، وتتطاير الأسئلة في منطاد بشكل أسئلة بائع اللبن!

أعترف – إذن – للمرة الثانية أن الكتابة أضحت لوحة ذات خطوط متعرجة ومتشابكة، وأن الكاتب كما فوهة مدفأة يُقذَف فيها بالحطب وتتوهج بتلك المعاناة، وتَسْوَدّ بهذه الإحباطات التي تأتي بصيغة النقد من الذين لا يجيدون فن النقد بقدر ما يهدفون إلى التعريض بالكاتب!

إن الكاتب من أجل أن يقدم ويبني عملاً فكريًّا، وإبداعاً أدبيًّا فنيًّا، لابد أن يتساءل: لمن أقدمه؟!

فإذا تجرأ، وتفاءل وقدمه، فكيف يعيد نفسه إلى التفاؤل ومواصلة الفكرة والقدرة على الوقوف؟!

إن الكاتب لكي ينتشر ذيوعاً محفوفاً بالرضى، فعليه أن يستمرىء بعض الوقت: انهزامية مُنظَّمة... تخضع فقط لعلاقته الخاصة مع من أراد أن يكتب، وأن ينتقد وأن يسلبه حقه الخاص!

ولا بد أنّني أشفق على كل كاتب يقدم إنتاجه الأدبي للطرح في الأسواق، والشفقة عليه تكون لسببين: إمّا أن يتعرض لسلخ فروة أفكاره وشخصه أيضاً وتسفيه كل ما كتبه... تحت هدف النقد، وإمّا أن يصطدم بحقيقة غياب القارىء، وإهمال هذا العمل الأدبي الذي عانى في كتاباته وانصهر واشتعل وتلفّت به نحو الحياة.

* * *

وأتوقف هنا الآن بعد مقدمة المقدمة... لأتلفّت بدوري نحو الكاتب القاص الأستاذ «فؤاد عنقاوي» ونعرف أن تجربته في إصدار الكتب محدودة أو قصيرة، فقد سبقت هذه المجموعة القصصية له: رواية اجتماعية عنوانها: «لاظل تحت الجبل»، وقد

رأيتـه في تـلك الرواية يدخل إلى بهو كتّاب الرواية الحديثة وهو يمتلك قدرة وتصميماً على أن يـعطـي جديداً يلفت الانتباه إليه، وفي تلك الرواية كان يشبه عدسة المصور الفنان، وإن لم يحفل كثيراً بإعطاء الصورة التي اكتملت ألوانها.

ولـكـن «فؤاد عنقاوي» الذي مارس الكتابة الصحفية زمناً قد تأثر بطريقة الطرح في الـصـحـافة، أو أنه اندرج في زحام الكتابة الصحفية التي سادت، ولعلها أيضاً طغت على المعـالجات القصصية في إنتاج كثير من الذين تصدروا صفحات الجرائد، وأصدروا ما كتبوه في كتب مطبوعة ملونة المضمون: قصة، وقصيدة، وبحثاً، ورواية، ومسرحية.

وكتابة القصة في عالمنا العربي اليوم تراوح ما بين ملمحين:

● **الملمح الأول:** نجده في مجموعات قصصية لم يكن كتّابها من الأدباء، بل هم من الـصـحـفـيين الـذيـن عـايشوا المجتمع ومشاكله وقصصه، فجاء الطرح أو العرض في تلك الـقـصـص سـرداً لأحـداث أو تـصويراً لمواقف تخلو من ظلال العبارة الأدبية وتميل إلى طـبـيعة عدسة «الزوم» وقد لا نجد في القصة مواقف متعددة أو أحداثاً متلاحقة، ولكنها موقف واحد مؤطّر بعدة حركات نفسية إذا جاز لي هذا التعبير!

● **والمـلـمـح الآخر:** نجده في مجموعات قصصية.. كتّابها من الأدباء الذين يحفلون بـالـتـصـويـر وبـالـتـصـور، وبـالـرمـز، وبـالإيحـاء، ولـكنهـم بحكم العيش يعملون في الـصحافة... غير أن هذا الاضطرار إلى الرزق والعمل، مع الميل إلى الأدب وفن العبارة والصورة.. جعلهم يجسّدون الصورة التي يرمزون بها ولا يرسمون ولا يصورون!

وعـنـدمـا فرغت من قراءة هذه المجموعة القصصية للكاتب «فؤاد عنقاوي» وجدته يـركـض نحـو أصـحـاب المـلـمـح الأول، أو أنـه لم يـكـن في يـوم مـا من الكتاب الذين يـسـتـخـدمون الرمز، أو العبارة الموحية، ولكنه يكتب مباشرة، ويصور مع الحرص على إبـراز الـزوايـا والـظـلال في الـصورة. ولم يأت تصويره للحدث أو للموقف في القصة من مـسـافـة بـعـيدة بعض الشيء ليلتقط الجوانب، ولكنه يصنع الحدث أو الموقف من موقع قريب.

ولـسـت هنا في موقع الناقد لهذه المجموعة، بل إنّني أقدمها كخطوة جديدة للكاتب، فـقـد كـانـت خـطـوته الأولى إلينا: رواية، وكم تمنيت لو واصل هذا المشوار... ذلك أنـنـي رأيته يأتي على خط الروائي السعودي الراحل «حامد دمنهوري»، أما وقد تمهّل

قـليـلا، وطـلـع علينا بالقصة القصيرة وهي الأصعب في العمل الدرامي، فإنني —رغم هذا— أتطلع إليه ككاتب طموح يستنهض الإبداع في قدراته الأدبية والفنية، ولا أرغب أن أتنـاول هـذه المجـمـوعـة قـصة وراء قصة على شكل شريحة اللحم، ولكنني أعتبر هذه المجموعة القصصية شرائح اجتماعية تختلف مواقفها وأحداثها، ولكنها تتحد في المضمون الـذي هـدف إلـيـه الـكـاتـب... هذا المضمون الذي اهتم به في هذه المجموعة لأنه يتميز بـنـوعية المجتمع الذي يصوره و يكتب من داخله، والاهتمام بتقلب حقبه ومعرفة الجذور فـيـه، والتلقّي العاجل والسريع والصريع، ولا أتمنى أن يأتي ناقد لهذه المجموعة ليركّز على الـشـكـل أو على الـصـور المتلاحقة فيها، فكما قالت الدكتورة سهير القلماوي: «إن التأثر المتبادل بين مضمون العمل الفني وشكله أمر بالغ التعقيد»!

إنّـنـي هنا أتجاوز وظيفة الناقد، وألتزم وأهتم بما يختمر في ذهني كقارىء، وبما يتولد مـن أفكار عند الكاتب... يرتعش لها صدري، وفي رأيي أن من الإجحاف للكاتب أن يـفـرض عـلـيـه نـاقـد مـا كـتابة القصة، أو العمل الأدبي بالطريقة التي تروق له وتحدّد تـطـلـعـاتـه، وليس بالتفاعل والامتلاء الذي يحس بهما الكاتب، وفي ذلك يقول الروائي الأمريكي «جاك لندن»:

— إن على الـفـنـان أن يـواجـه الـنـاس بـالحـقيقة. إن عليه أن يرفض دائماً أن يقوم بـوظـيـفـة الحـمام التركي بالنسبة لهم، وما أصعب أن يمسك الكاتب الفنان بالجمر بين أصابعه و يقول الحقيقة للناس بأسلوبه، و بعرضه، و بطريقته في التعبير!!

إنّـنـي —إذن— أستطيع أن أحفظ أو أحتفظ بمجموعة أقوال وآراء وعبارات لكتّاب مـن الـغـرب والـشـرق، وأحـشـو بها مقالاً أنتقد فيه عملاً أدبيًّا ليقال عنّي: إنّني الناقد المتابع المتطور، وإنّني ملم (بموضات) الكتابة الحديثة في العالم. هذا سهل جدًّا لو قدرت أن أستهين بـالـقـارىء أو أتجـاوزه وأرى نـفـسـي فـوقـه، ولـكـنـي أعتقد فيما قاله القاص المـعـروف «يـوري تـر يـفـونـوف»: إنـه مـن الصعب وضع حدود بين الأشكال الأدبية المختـلـفـة، فـعـلـى سبيل المثال: ما الاختلافات الأساسية —بعد الحجم— بين القصة الـقـصـيـرة والروايـة؟!.. إن قـصـص تشيخوف القصيرة ليست سوى روايات ضغطها بقوته!

* * *

وبعد...

إنّني أقدم للقارىء كاتب قصة قصيرة... احتفل بالتصوير، ولم يحفل بالتصوّر، ولكن خلفية كل قصة من هذه المجموعة هي بلا شك ذات انتماء لهذا المجتمع. وفي تصوّري أن الكاتب القاص «فؤاد عنقاوي» لم يتوقف طويلاً أمام التساؤل الذي يطرحه كل كاتب عن عمله بعد مخاض كتابته، فيقول: لمن أقدمه؟!.. ذلك أنه قد قدمه إلى مجتمعه... واستطاع أن يمدّ كل شريحة من هذه الشرائح الاجتماعية بالنبض وبالحياة!!

* * *

تعريف .. وإهداء

في اعتقاد كثير من النقاد أن القصة القصيرة في تكوينها وحبكها وسردها هي أصعب عمل أدبي يمكن للكاتب أو القاص أن يقدمه نموذجاً أدبيًّا متكاملاً...

ومعروف أن العمل الأدبي - ككل - قد تعددت اتجاهاته، وكثرت مدارسه... وما لبث النقد أن ارتبط بتلك الاتجاهات والمدارس... فخرج علينا النقاد بمذاهب متفرقة وآراء متباينة تلتقي جميعها في محاولات لتقييم ذلك الإنتاج الفكري.

وكم أتمنى لهذه المجموعة من القصص ألاّ تلتزم بمذهب معيّن أو تنحى منحًى يرضي النقاد أو تجعلهم يصنّفونها أو بعضاً منها في القوالب التي تبعدها عن كونها انعكاسات وتعبير لبيئة عاشتها مجموعة أبطال كل قصة... ذلك أن منبع هذه القصص والمصب هو الإحساس... الإحساس الذي جعل منها كياناً دراماتيكياً أو انفعالات مجسمة تكاد تلمسها أو تحس بها عندما تقرؤها وتتفاعل معها... فوراء كل قصة واقع عاشه كل شخص فيها... البعض قد لقي ربّه وفارق هذه الدنيا، والبعض الآخر ما زال يعيش مجتراً ذكرياته من الماضي البعيد...

إن كلاً من قصة «الشحات - مثلاً - والأستاذ علي، وآخرك بابه يادشيش، وخالقك ماني مفارقك، وأيام مبعثرة» ليست مجرد قصص بقدر ما هي نماذج بشرية من مجتمع «مكة المكرمة» وما ارتبط به من تقاليد ومبادىء وعادات عفا على بعضها الزمن فاندثر كثير منها وتشبث بالبعض الباقي أشخاص لا يزالون يرون في استمراريتها الأصالة والخير.

فإلى أولئك الذين اختارهم الله للعالم الآخر... المغفرة والسلوان.

وإلى الذين لا يزالون أحياء يرزقون... أهدي إليهم سلاماً زكيًّا وتقديراً خاصاً.

والله الملهم إلى الصواب.

المؤلف

أيام مبعثرة



أيام مبعثرة

أسند الأب ظهره إلى أقرب جدار بعد أن أحس بانفجار شديد داخل رأسه... وفتح فماً عقدت الدهشة لسانه... وتوقف مِحْجَرا عينيه عن الحركة...

وصاح في صوت بحوح غلبه البكاء والحشرجة:

— « يا إلــهي...
لا أصدق عيني... مستحيل... غير معقول...»

وأخذ يقلّب صفحات الدفتر الذي خطته يد ابنته قبل أن تموت... وقرأ منه صفحات مبعثرة، وتوقف عند الصفحات الأخيرة:

— «أموت كمداً... أموت حسرة... أموت وفي قلبي حقد، على أبي... على أمي... على المجتمع...»
وطوى ورقة أخرى:

— «الألم يعصف بي... الموت البطيء أشد قسوة... تعبت من انتظار النهاية...
متى تكون الخاتمة؟.. أوّاه... ربّي...»
وقفزت عيناه إلى السطور التالية وقلبه يدقّ بشدّة...

— «ترى من هو المسؤول عن شقائي... في حياتي...؟؟؟»
... ترى من سيشقى بعد موتي؟؟

أبي...؟؟
أمي...؟؟
لقد قاسيا معي أثناء مرضي وتعبا... وارتجفا، ولكن...

ولم يطق صبراً... و بيد مرتجفة... وفؤاد ملهوف،وضمير مستيقظ، وعقل متحفّز... أخذ يقرأ الدفتر من أوله:

«يا يوم مولدي...
متى كنت، وفي أي سنة أتيت، وما اسمك بين الأيام؟
في أي عام أشرقت شمس يومي فيك؟

تقول أمي: إنني أزعجت ليلتها وملأت بيتنا صراخاً عند أول إطلالة لي في دنيا الغرباء —قبل عام من سيل الأربعاء المشهور— الذي داهم مكة وجرف معه أوساخ البلدة وخرّب بيوتها حتى اقتحم الحرم و وصلت مياهه إلى باب الكعبة...

ياله من تاريخ مشهود... و ياله من سجل سوف لا يمحى من ذاكرتي...

لم أشعر بتبدّل المشاعر نحوي إلاّ عندما هل في سمائنا قادم جديد... أخذ يستحوذ على اهتمام أبي كلّه، وعناية أمّي البالغة حتى صرت أكره هذا الطفل الذي أفهموني أنه أخي وسيّد البيت بعد أبي...

ماذا كان يعني لي هذا الكلام؟؟
وأين تلك العواطف التي كان يفجّرها أمامهم ضحكي و بكائي؟؟»

* * *

أرسلوني إلى «الكُتَّاب» لأفك الحرف، وأتعلم قراءة القرآن... غرفة حقيرة مفروشة «بالخصف» ومُدرِّسة بلهاء لا تجيد سوى إعطاء الأوامر للبنات... شكراً لله فلم يكن من الواجبات التي وزعتها «الخوجة» علينا سوى كنس الدرج... ومسكينة تلك البنت التي كانت تقوم بتقطيع البصل وتقشير الثوم... كان منظر عينيها الدامعتين يثير الضحك في نفوسنا...

أما تلك الفتاة التي كانت «ترعى طفلة الخوجة» فكانت محل شفقتنا...

كان اللوح الخشب المستطيل الذي كنّا نكتب عليه حروف الأبجدية يزعجنا، فكثيراً ما استقر على رؤوسنا بدلاً من العصا التي كنّا نخفيها عن عين المدرسة.

«ختمنا الخَتْمَة»... كان عمري اثنتي عشرة سنة... وهذا نبوغ إن دل يومها على شيء فإنما يدل على موهبة الحفظ وقوة الاستيعاب (هكذا قالوا)... لا تسل عن فرحتي آنذاك، وسخفه في نظري عندما خرجنا جميعنا ننشد الأناشيد ونلقي القصائد من الكُتَّاب حتى بيتنا حيث استقبلونا «بزفة وغطاريف» ووزعت «الحلاوة الباتاسا» على البنات والجيران والأقارب... وأحسست بعدها بالزهو على أخويّ الصغيرين.

* * *

وجدت ضالتي... بعد أن حبسني أبي في البيت ومنع خروجي تمشّياً مع العُرف...

كتب كثيرة محفوظة في صندوق خشبي... فتحته بحذر وخوف شديد وتلصص زائد... أخذت أول كتاب وقع في يدي... هرعت إلى (المبيت) وأخذت أقرأ بصعوبة، فالكتاب لم يكن «مُشَكَّلاً» كالمصحف الشريف... ولكن الوقت سرقني وأنا أقرأ أو أحاول أن أقرأ... كان الكتاب لذيذاً وقصته تشدّني إليها... وعندما كنت أسمع حركة أو صوتاً أخبىء الكتاب تحت المخدّة.

وتكررت عمليات التلصص و«سرقة الكتب» من صندوق أبي وقراءتها بشغف... «عنترة... والزير سالم، ألف ليلة وليلة... ومجنون ليلى...»

وتعوّدت عيناي قراءة تلك الكتب... وبدأت أستوعب ثم... أفهم ما كنت أقرأ... وأصبحت مدمنة على القراءة حتى ضبطتني أمّي بجرمي البالغ... ومنعتني... فاتّجهت إلى تعلّم الكتابة، بذلت محاولات كبيرة وصبرت أشد الصبر حتى استقام بي الأمر... وفرحت بهذا الانتصار الثاني...

جاءنا زائر جديد...

فقد أوكلت أمّي أمر طفلها الرابع إليّ... أعتني به وأنظّفه، وأطعمه، وأسقيه... عاندت... بكيت... وأخيراً وافقت بعد أن وافقت أمّي بشدة على السماح لي بالقراءة... قراءة تلك الكتب التي في الصندوق.

* * *

أحسست بمغص شديد... وشعرت بعوارض جديدة في جسمي، وبكيت وبكى الطفل... وجاءتني أمّي تستطلع الصرخات التي كنت أطلقها غصباً عنّي... وأسبلت

عيني... ورأت أمّي ما رأت، فابتسمت ابتسامة مازالت معلّقة في ذاكرتي... وقالت لقد كبرت يا فتاتي... وأصبحت أنثى... ولم أفهم.

تغيّرت معاملة أمّي لي، وأصبحت حازمة صارمة معي... واشتدت مراقبتها لي، ولم تدعني أستمتع بقراءاتي، ولم تترك لي فرصة أنفرد فيها بنفسي.

الشيء الوحيد الذي أفرحني أنّها لم تعد تضربني بقسوة عند أول غلطة... غير أن أوامرها المشدّدة، ونهيها المستمر في كل تصرفاتها أزعجني... «لا تفعلي هذا، لا تتكلمي بهذه الطريقة... اخفضي صوتك... لا تقفي وراء الشباك... لا تكلمي الصبيان... لا... لا... لا...» يكاد رأسي ينفجر كلما تذكرت تلك الكلمات.

* * *

زارتنا ابنة عمّي، وهي أكبر منّي قليلاً... كانت بالنسبة لي أقرب إنسان إلى قلبي... عندما رأت شحوبي واضطرابي، وعندما سمعت حشرجة غريبة في صوتي ابتسمت... «ما سر هذه الابتسامة؟؟» تساءلت مع نفسي... وهمست في أذني، وقالت لي كلاماً غريباً... لم أفهمه... وقالت: آن أوانك وأصبحت مؤهلة للزواج... ونظرت إليها مستطلعة... مستزيدة... فقد أعجبني ما قالت، وكأنّ عالماً جديداً انفتح أمامي... وخرجت... لتغلق باباً حديديًّا خلفها... تجلس أمّي أمامه محتفظة بمفاتيحه...

وأصبح خروجي من البيت كمعركة حربية يتحتّم عليّ أن أحضر لها العدّة... بالتوسل، والرجاء والبكاء... فلم يعد السجن الذي أنا فيه يريحني، كنت أريد أن أتنسّم نسمة هواء منعشة... أن ألتقي بأناس غير هذه المجموعة البشرية التي أعيش بينها... أناس يتحدثون... يضحكون... يمرحون...

ولكن هيهات... إن وافقت أمّي يرفض أبي، وإن رضي أبي هدّدت أمّي وتوعّدت... وإن جادت السماء بخروج، فالحراسة تمشي أمامي وخلفي... أجرجر إخواني الصغار في يدي وأعود قبل أن تنكس الشمس رأسها في المغيب.

* * *

وأبي...

أين هو منّي؟

بل أقول: أين هو من أمّي، ومنّا جميعاً...؟

كان يختصر جلوسه في المقعد... يخرج طوال يومه ليعمل ويجلب لنا الرزق — كما كان يقول — وفي الليل تبدأ جلساته مع أصحابه هناك، وأذهب لأنام أنا وإخواني... وتنتظر أمّي صعوده إليها...

وهكذا مرت الأيام سريعاً.

* * *

وكبرت، وكبر أخي، وكبرت همومي أيضاً... وكان أخي يحضر معه كتباً جديدة غير التي كنت أقرؤها في صندوق أبي... وبحيل بارعة، ورجاءات خاصة، ووعود بغسل حوائجه وكيّها، ورشوته ببعض القروش القليلة التي كنت أتحصّل عليها... كان يسمح لي بقراءة بعضها...

لا تسل عن خيبتي وقلّة حيلتي عندما كان يغضب منّي أو يثور عليّ لأتفه سبب فيحرمني قراءتها...

أصبحت كتب أخي سلوتي في حياتي... وجلّها عن الحب، والزواج، والعالم البعيد عن عيني، والمستحيل بالنسبة لي.

حياتي أصبحت كالخيار... كالقثاء... لا طعم لها... حياة رتيبة... مملّة أيقظني من ركودها ذلك الاختراع اللذيذ الذي أحضره أبي إلينا بعد رجاء حار، وتوسّل متواصل، وبكاء مستمر... أصبح الراديو سلوتي، وعزائي في هذه الدنيا... أقضي معه أطول ساعات عرفها التاريخ... أطول من ليالي قيس وليلى...

* * *

كنت أرقب دوماً الحياة الزوجية بين أبي وأمّي... أقارن بينها وبين ما أقرأ وما أسمع... أوّاه ربّي... كيف يمكن لزوجين أن يعيشا معاً وهما لا يحملان ودًّا ولا حبًّا لبعض.؟ كيف تنام أمي وأبي غاضب عليها؟ وكيف يستريح أبي وأمّي حاقدة عليه..؟ كنت أرى أن حياتهما جحيم وقوده الخصام، وناره الاحتقار، وسعيره الإهمال واللامبالاة، ولهبه ذاك السباب الذي يتطاير من الأفواه فيصيب مسامعنا نحن الأطفال...

ويوماً بعد يوم، صرت أحفظ كل ذلك السّباب، واللّعنات، وأعتقد أنّي أصبحت أعرف كيف أثير زوبعة عارمة في البيت؟ متى احتجت إليها، بل لقد ساعدني ذلك الجو الصّاخب على أن أكون سليطة اللّسان إذا ما امتحنت في ذلك.

* * *

تزوجت بنت عمّي... ولبسنا أبهى الحلي وأغلى الملابس... وفرحنا بإقامة الولائم والعزائم... لم أكن متشوّقة إلى كل ذلك... بقدرما كنت متلهّفة إلى تلك الأخبار الخاصة... واجتمعت أنا وشلّة من البنات، وأخذت ابنة عمّي تقصّ علينا في دلال وسحر تفاصيل ما جرى...

ورنّت في أذني ضربات جديدة لم أتعوّدها...

وسقطت في قلبي حصوة جافة من المرارة والحقد...

وبدأت عيني تنظر في الأفق البعيدة، ومحاجرها تبحث عن ضالة لا أجدها أمامي...

* * *

واشتدت ثوراتي مع أمّي، وازداد خصامي معها، وصارت لا تكلفني بعمل إلاّ وتسمع المسكينة سيلاً من الاحتجاج، وصرخات التحدّي، وأخيراً أعلنت الرفض لكل ما تطلب...

حاورتني أمّي في ذلك تجنّباً للمشاكل، وكان قلبي يرقّ لها أحياناً عندما أرى دمعات حيرى تترقرق في محاجرها، غيرأنّي أصبح كاسرة كاللبوة عندما تمنعني من الخروج أو القراءة أو سماع الراديو.. ولكنّها كانت لا ترفع أمري إلى أبي مخافة أن يبطش بي أو يقسو عليّ بالضرب بعد أن أصبحت وسيلته الوحيدة في الإعراب عن مشاعره نحونا وإظهار تأفّفه وضيقه بالجو العائلي الذي أخذ يزداد سوءاً، تلفّه قسوة، ويطويه لامبالاة.

* * *

كدت أطير من الفرح... وأخذ قلبي يرقص طرباً... فقد طرق بابنا عريس، جاء يخطبني من أبي... عرفت ذلك من أخي... وتلصّصت خلف الشّباك كي أراه مرة... مرة واحدة، فلم أفلح...

وأخـذت أحـلامي العريضة تتّسع، وآمالي تزداد، فسوف أخلص من هذا الجحيم، وسوف أنتقل إلى عش الزوجية لأبني بيتاً سعيداً وأربّي أطفالاً و... و...

ولـكن أبي رفض بشدة، وبكيت بيني وبين نفسي، وأحسست بخيبة أمل كبيرة، وفـقـدت شهيتي للأكل، وأهملت نفسي، ولم تفلح كل توسّلات أمّي في إقناعي بتناول وجبة واحدة من الطعام رغم أنها لا تعرف سبب ذلك...

وازددت حـقـداً بيـنـي وبين نـفسي على أبي، وإصراراً على تجنّب الأكل ــ عندما علـمـت أن رفضـه للعـريـس الـذي جاء يطلبني كان أنانية منه، فأنا التي كنت أقوم بمسؤولية البيت وخدمته، ويقتصر عمل أمّي على تربية الأطفال الذين أخذوا يتكاثرون واحـداً بـعـد الآخـر... وازداد نحـولـي، وشحوبي، فقد كنت أريد أن أخلص من هذا الجحيم.

وفجأة...

أحسست بآلام في صدري، ومغص حاد شديد وإسهال فظيع ينتابني، وكتمته أول الأمر مستعينة بالوصفات البلدية، وبالبكاء وشد البطن...

وازداد الألم، وضـعـف جسمي، وهزل جسدي، ووهن عظمي، ولم تقو قدماي على الوقوف...

وصـحـوت في إحـدى الليـالي وأنا أكح كحّة جافّة آلمتني في حلقي، وصدري... ورحت أحملق غير مصدّقة في ذلك البصاق الذي خرج من فمي...

أوّاه... يا إلـٰهي... إنّه دم...

وفي الصباح بعد ليلة مليئة بالهواجس والأوهام... أخبرت أمّي... فلم تزد على أن قالت: «سُفّي جنزبيل... وبلاش فَلْقَة».

وتجـرأت، وأخـبرت أبي في لحظة من لحظات رضاه عن العائلة... فقال بعد أن هز رأسه: «شويّة برد، ويروح».

* * *

أحـسّ الآن وقـد أصـبـحـت هـزيـلـة شاحبة اللون يتدفّق الدم من صدري إنّي أسير ببطء إلى نهاية محتومة...

أردت قـبـل أن أودّع الحـيـاة أن تـكون لي ابنة حلوة كأنغام الموسيقى، أو ولد صغير

* * *

يملأ كيـانـي فـأسعده و يسعدني... بدلاً من إخواني الذين تعبت معهم... تمنّيت أن يـكـون لـي بيـت أمـلـؤه سـعادة وبهجة وسروراً بدلاً من ذلك الصّراخ وتلك الشّتائم التي كانت تملأ جو الأسرة وتملأ حياتنا...

وددت لـو أن حـظّي كـان سـعيـداً كـابـنة عمّي فأتعرّف على الدنيا وأنعم بملذّاتها ومطايبها...

ولكـن...

إن ضـعـفي يشتد، وجسمي يعجز عن الحركة، ولم يبق فيّ شيء نشط سوى عقلي، إنـه يـضـغـط عـلـيّ بـالتفكير... في ذاتي... وفي أسرتي... وفي هذا المجتمع، وفي تلك التقاليد.

أوّاه ربّي... لم يعد فيّ شيء...

فوداعاً...

وليسامحكم الله... وليسامحني معكم...

وداعاً...

* * *

الشحات



الشعات

كنّا صبية صغاراً لا يتجاوز عمر الواحد منّا اثنتي عشرة سنة... نذهب إلى المدرسة سويًّا بعد أن نتجمع صباحاً في «البرحة» الواقعة في منتصف جبل «السبع البنات» بحارة أجياد — والتي تؤدي من الناحية الغربية إلى «دحديرة» العُرضي — حيث كانت ثكنة جنود الشرطة بجوار دار الأيتام وكنّا نتسلى في العصاري بالاستعراض اليومي على أنغام «المزيكة» التي تصدح صباحاً ومساءً... مترقبين «البرزان» الذي يعلن أوقات الصلاة، ووجبات الأكل، وساعات الاستعداد والتأهب للتجمع... وكم كنا نتلذذ بالمشي في ذلك الشارع الفسيح المظللة جوانبه بالأشجار الكبيرة على الجانبين ونتنشق روائح زهرة النيم الجميلة... كما كنا نجري وراء سيارة «رشاش» البلدية وهي ترش العرضى بالماء بعد صلاة العصر وقبل الاستعراض... ولا تسل عن اعتزازنا بحارتنا وهي تحتضن ذلك الشارع الرئيسي المهم يشمخ في وسطه أكبر فندق في مكة المكرمة وأضخم مبنى حكومي – وزارة المالية – ... وكان العرضى يجتذب مئات من الشباب والرجال وقد تعلّق في أيدى بعضهم أطفالهم لمشاهدة «المزيكة» والاستعراض العسكري المدهش، بل كنّا نباهي به بعض الأولاد من غير حارتنا.

ولـمّا كانت تلك البرحة تجمعنا لنذهب سويًّا إلى المدرسة حاملاً كل منّا شنطته «التنك» بألوانها الزاهية فوق رأسه... كانت البرحة أيضاً مقر وموعد لقائنا كل عصر وأيام الجمع والأعياد نستمتع بلعب «الكبوش، والبَرَجو، والكَبَتْ» وغير ذلك من الألعاب الشعبية آنذاك، وفيها نستمع إلى الأقاصيص والحكايات يسردها عم «صدّيق العسّا»... وكان بحكم عمله يعرف كل من في الجبل من صغير وكبير، كما يعرف

أهـلـه وسـاكنيه، والذين رحلوا إلى دار الآخرة، أو نقلوا من الحارة... وكان رجلاً طيّباً مـوفّقاً للخير يساعد الضعيف و يسهر على المرضى... وهو دائماً في خدمة العاجز والأرملة أو «المقطوعة» كما كان يسميها.

ولا عـجـب أن كانت الحيرة تتملّكنا عندما كنّا نشاهد ذلك الرجل الغريب الذي هـبـط على جـبـلـنـا وسكن في أعلى الجبل من الناحية الشرقية الجنوبية المقابلة للمسجد الحـرام... وكـنّـا نجـتمع حوله عندما يمر، ونسلم عليه أو نكلّمه... ولكنه لا يرد علينا، بـل إن بـعضاً منّا تحرّش به بغية أن نسمع صوته أو نعرف لغته... ولكنه كان دائماً لائذاً بالصمت... وكان أكثر ما يعجبنا فيه تكوينه الجسماني... ولبسه الغريب...

كـان ذلـك الـغـريـب... قـصيراً، نحيل الجسم، وله رأس كبير، ووجه مستطيل، وكـانـت لحـيـتـه تـصـك وجـهه مذبّبة من أسفل الذقن، طويلة إلى حد ما، وفوقها يرقد شـارب عـريـض طـويـل، وشـعـراته خليط بين الرمادي والأبيض، وكان يلبس قميصاً «هـنـديًّـا» يـصل إلى ما تحت الركبة، أخضر اللون، وسروالاً رمادي اللون — ولكنه في أغـلـب الـظـن — أبيض وربما اكتسب اللون الرمادي بمرور السنين عليه... وكان يضع فـوق رأسـه طـربـوشـاً أحمر يلف عليه قطعة قماش خضراء وسجادة سوداء على كتفه... وسـبـحة — نعتقد أنها (ألفيّة) من حبات الخشب - معلقة في رقبته... كما كان يلبس في أصـابـع يديه الاثنتين خواتم سوداء — ربما كانت من النحاس أو الفضة أو الذهب — لا أحد يقطع بقول — فالوسخ قد حوّل لونها إلى سواد كما ذكرت... وأمّا ما يلبسه في قدميه فـشـيء لا أستطيع تحديده حسب مفهومنا ونحن صغار، فلا هو بـ«التلّيك» (١) ولا هو — خف وبابوج —. كما أنـه بـعيد عن المداس أو «التاسومة» التي كنّا نستعملها في تلك الأيام... ربما شيء ابتكره أو أحضره معه من بلاده البعيدة.

واتّـبـاعاً لفضولنا نحن الصبية الصغار هرعنا إلى عم صدّيق لعل عنده الجواب الشافي عـن حـقـيـقـة ذلـك الغريب... غير أن عم صدّيق كان أشد منّا رغبة وفضولاً في معرفة حـقـيـقة أمره — وخبط يداً ناشفة على صلعته الممتدة من جبينه إلى أسفل رأسه — بعد أن أزاح «العِمَّة» قائلاً: «... وربّك... لازم أجيب قراره... وأعرف أصله وفصله، ولو بعد حين...»

---

(١) نعل خفيف من الجلد.

وقررنا نحن الصبية الصغار أن نقوم بمراقبته وملاحقته لمعرفة أين يذهب؟.. وكيف يقضي يومه؟؟... وابتدأنا بسؤال عم يسلم الحضرمي صاحب الدكان الذي يقع عند مفترق الدحديرة فأجابنا أنه يرى ذلك الغريب في صعوده الجبل وهبوطه... وأنه أضبط في مواعيده من ساعة «الحميدية» الرسمية للحكومة... فهو ينزل من «الصندقة» التي يسكن فيها بعد شروق الشمس بقليل، و يعود بعد صلاة الظهر، ثم ينزل من الجبل قبل صلاة العصر ولا يعود إلا بعد صلاة العشاء حاملاً في يده قرطاساً لا يتغير حجمه أبداً... وقد وقع الاختيار على اثنين من الأولاد المشهود لهم بالجري و«الزوغان» وكلفناهما بمراقبته طوال النهار... وقد كنت أحد هذين الولدين...

وفي اليوم المحدّد... يوم الجمعة... انتظرناه عند عم يسلم الحضرمي... ومشينا وراءه وهو لا يحس بنا... ورغم أنه كان رجلاً في الخمسين من عمره تقريباً إلاّ أن خطواته وهو ينزل من الدحديرة التي تنحدر انحداراً شديداً عند أسفل الجبل وتتكوّم على أطرافها أحجار وأوساخ وأتربة تتسرّب من تحتها المياه التي يستعملها أهالي الجبل في بيوتهم... أقول: كانت خطواته ثابتة خفيفة كخفة القط وهو يقفز من فوق هذا الحجر إلى ذاك لا يتكيء على عصا ولا يستند على جدار كما كان يفعل من هم في سنّه...

وكان لا يلتفت إلى أحد، ولا يسلم على الناس الجالسين فوق دكة أو تحت روشان... حتى الكلاب التي كانت تقفز أمامه وهي تسابق بعضها صعوداً أو هبوطاً من الدحديرة لا يعيرها انتباهاً مع أنها كلاب مشهورة في جبلنا اكتسبت شهرتها من نباحها الذي يسمع في جبل أبي قبيس وكثرة عددها الذي لم يستطع أحد حصره... وعند منعطف الزقاق المؤدي إلى شارع السد شمالاً اتجه إلى الحرم الشريف... وتابعناه في قلق ووجل... حتى إذا حاذى المستشفى العام اتجه إلى باب أجياد... وبعد أن توقف قليلاً أمام قهوة قاسم نفخو وكأنه يسترد أنفاسه أو يقرر أمراً... اتجه فوراً إلى «التكية»... ووقفنا نحن على مسافة قريبة منه... وسرعان ما رأيناه يدلف إلى حوش التكية يعود بعدها حاملاً في يده «قرص عيش وطاسة شوربة» ويجلس القرفصاء ليأكل... وبعد أن ملأ بطنه وشبع... اتجه إلى الحرم الشريف... وعند المدخل خلع ذلك الشيء الذي تحدثت عنه — كالنعل — وحمله تحت إبطه ومشى... ولما كنّا مكلفين من قِبَلِ «البشكة» بملاحقته... مشينا وراءه... وتوقف في صحن الطواف

أمام المقام الحنفي –قليلاً– ثم اتجه إلى باب السلام ونحن نمشي خلفه دون أن يحسّ بنا... وهناك في المسعى افترش سجادته السوداء و بسط يده يستجدي الناس...

وطرنا إلى الجبل... وتجمع الأولاد من حولنا... وكان خبر الملاحقة والمتابعة قد انتشر بواسطة عم صدّيق... فانضم إلى الحلقة التي كنّا نعقدها فوق «قوز البطحاء» بعض من كبارنا... وقصصنا عليهم قصة الغريب والاكتشاف العظيم الذي قمنا به... وألقينا القنبلة التي دوت أصداؤها في الآذان... إنه شحّات... وترجم عم صدّيق شعورنا –على ما نعتقد– عندما قال: «شحّات وعينه بارحة».

وكان يمكن أن تمر أيامه ولياليه معنا في الحارة من غير أن نعيره اهتماماً حيث تأكد لنا أنه لا يريد أن يكلم أحداً... –ربما لأنه أبكم– لولا تلك الحادثة المشهودة التي أظهر فيها شجاعة نادرة جعلتنا نحسب له ألف حساب، وأكبرته في أعيننا إكباراً منع عنه الأذية أو المضايقة وهو صاعد هابط الجبل من أمامنا... ذلك أنّا كنّا نلعب «الكورة»، وكان ذلك اليوم هو عصر ثاني أيام العيد السعيد، وقد أحضر لنا الواد حمودة كورة شراب جديدة وقال: إن أمّه وعدته بها «عيدية» لأنها قامت بحشوها بالخروق الثقيلة... وهي من الصوف –كما يدّعي– نقلاً عن أمّه... والشراب الذي يلفها شراب «فرتكوس» هدية أبيه لأمّه أيام العرس... ما علينا فيما يقوله حمودة ويمتدح به الشراب بقدر ما تهمنا الكورة نفسها... واشتد بنا الحماس في لعبة «على أول يقت»... ولما وصلنا إلى دور «على أول قلبي» كان أحدنا وهو «جمعان» أو «أبودلش» –لا أذكر الآن– وهو أقوى من يضرب الكورة «عالي» برجله لتغيب عن النظر... واندفعنا جميعاً وراء الكورة خوفاً من أن تقع في المهلك... ولصلابتها وشدة دورانها تدحرجت أمامنا في الدحديرة وانحرفت إلى اليمين واستقرت في وسط السرداب... مخيّبة آمالنا، ووقفنا مشدوهين... خائفين... نادمين... ينظر بعضنا في وجه بعض فيخطو هذا إلى الوراء وكأنه يستغيث... لا... ليس أنا... ومن كان يجرؤ أن يدوس أو يخطو خطوة واحدة صوب السرداب... عفواً... لم يكن اسمه معروفاً لدينا بالسرداب... كان الصغار والكبار... وخاصة النساء يعرفونه باسم «الدُّجّيرة»... حتى أنه عندما يخرج أحدنا من البيت للعب توصيه أمّه وصيتين مهمتين: «لا تتأخر يا واد عن المغرب... ولا تروح عند الدُّجّيرة... بعدين تاخدك...»، وضاع أملنا في

تمضية عيد مزدهر مليء باللعب بالكورة التي انتظرناها طوال شهر رمضان.. وعاودنا الأمل عندما استطاع أحدنا أن يتكلم بعد أن انحبس الكلام في «حلوقنا» دقائق خلناها دهراً... «ايش نسوّي يا عيال؟؟»، ولكن... مَنْ مِنَ العيال يستطيع أن يعمل شيئاً؟؟... وفيما نحن في هرج ومرج، وكر وفر... رأيناه... رأينا الشحات يقبل من أسفل... ورآنا ونحن مجتمعون على غير عادة والخوف باد علينا، والوجل والخجل مرسومان على وجوهنا... وكأنه سمع كلمة الكورة... ولا بد أنه رآنا وهو نازل بعد صلاة العصر، ولم نتنبّه إلى أن الليل قد أرخى سدوله إلاّ حين أقبل عمّنا الشحات... حتى فوانيس البلدية لم نلحظ إضاءتها إذ كنّا مشغولين في التفكير في وسيلة لإخراج الكورة من الدُّجِّيرة، ونظر إلينا مشفقاً... وكأن لسان حاله يقول: ...مجانين!! وكدنا نصدق أننا مجانين عندما رأيناه يخطو بقدم ثابتة وقامة قصيرة مشدودة و يتّجه إلى أسفل السرداب... والتصق بعضنا ببعض... وخجلت من نفسي عندما لم تعد رجلاي تحملاني لولا أن الواد حمودة نفسه استند على كتفي وأمسكت يده فإذا هي باردة كالثلج مرتعشة كالطير... وساد الصمت بيننا... وما هي إلاّ لحظات... وظهر مرة أخرى وهو يحمل في يده خمس أو ست «كورات» من بينها كورة حمودة الجديدة... ألقاها أمامنا... ومشى في طريقه من غير أن ينبس بكلمة... ولكن من هذا الذي ينتظر منه كلاماً بعد أن أهدى كل واحد منّا كورة —لم يكن يحلم بها— ؟؟!!!

وكبر الرجل في أعيننا... وتحدث الجبل عن بطولته... وأزاح عن كاهلنا عبئاً ثقيلاً حملناه معنا منذ ولادتنا —وربما حمله من قبلنا— وتضاربت الأقوال حوله... هل هو ولي يملك كرامات خاصة؟؟ أو رجل عنده خدام من الجن لذلك لم يكن خائفاً من الدُّجِّيرة لأنها واحدة منهم؟؟... وكان الاعتقاد السائد بيننا... أن أحداً من الصالحين استطاع أن يوقف أذيّتها بعد أن كانت تتعرض للأطفال فحبسها ورصدها في ذلك السرداب.

ما علينا... فلم نعد نهتم بتلك الأسطورة... بل وتجرأ بعضنا وقرروا أن يقتحموا ذلك السرداب بحثاً عن كورة عندما أفلسنا جميعاً من كور.

وفجأة:... تغيّب عن أنظارنا عمّنا الشحات، لم نره ذلك اليوم أو اليوم الذي قبله... وجرينا إلى عم يسلم الحضرمي نسأله إن كان قد رآه صباحاً أو مساءً فأكد لنا أنه لم يلاحظه كالعادة...

وفي المساء استطاع كل واحد أن يجد له عذراً يبرر به خروجه من البيت، وتجمّعنا عند عم صدّيق في البرحة، وقصصنا عليه الحكاية وأبدينا مخاوفنا من أن يكون مريضاً أو محتاجاً لعون أو مساعدة... وخبط عم صدّيق على جبينه —كعادته— قائلاً: «اخص يا عيال... يومين بحالهم وما تقولولي... قوموا هيّا...» وسحب «الشون» واتكأ عليه... واتجه إلى أعلى الجبل ونحن من ورائه... وبدّد الظلام فانوس عم صدّيق الذي كان يحمله... ووقفنا على الباب والظلام والهدوء يخيمان على الصندقة ونباح الكلاب يزداد... فيزداد المكان وحشة... وطرقنا الباب... وطرقناه... ولا أحد يجيب... ونظر بعضنا إلى الآخر... ثم انتظرنا أن يقول عم صدّيق كلمته: «هيّا»... إلاّ أن صوته جاء كلسعة عقرب... «يكون مات يا عيال؟؟!!» وارتعشت يداي، واشتدت ضربات قلبي... وأخذت أردّد «مات... مات...» واندفعنا نقتحم الباب... إلاّ أن عم صدّيق زعق زعقة في الواد جابر: «لا... روح أول للعمدة وقُلّه... عم صدّيق يقولك تعال قوام... وإذا ما تقدر... ارسل النقيب...»

وجاء النقيب بعد طول انتظار... وقلوبنا وجلة، وعيوننا زائغة وكل واحد في المجموعة يتحرّق شوقاً إلى معرفة السر... واقتحمنا الباب... وصعقنا من المنظر... وكانت الدهشة أقوى على وجوه الكبار منّا نحن الصغار... ولم نصدق أعيننا... كان الشحات جالساً... مسنداً ظهره على الصندقة... ممدداً رجليه... وعيناه مفتوحتان بارزتان... وقد انتفخ جسمه ورائحة كريهة تملأ جو الصندقة... وعندما تقدمنا خطوة أخرى رأينا على الضوء المنبعث من الفانوس شيئاً أشبه بما يرى في الأحلام... كان بين رجليه تنكة «صفيحة» مليئة بالريالات الفضية وقد تناثر بعضها على الأرض... كما كان بينها أنصاف وأرباع الريالات وعندما أدار عم صدّيق الفانوس بحركة لاشعورية نحو ذلك الشيء الذي يضيء كالذهب... كانت هناك تنكة أخرى تحت متكئه الأيمن مليئة بالجنيهات العثماني والغازيات التي تمتلك أمّي واحدة منها... تخبئها في مكان أمين ولا تتمتع برؤيتها إلاّ مرتين في العام... تلك هي «عقدة كفنها» كما تقول...

وعندما تمالكنا أنفسنا... خرجنا بهذا الكنز الذي هبط علينا، وأردنا أن نتبادل التهاني، ولكن صرخة النقيب أوقفت أطماعنا... وأنهت آمالنا: «شيلوا يدكم يا بزورة... هاذي فلوس حقت بيت المال...».

وعـنـد خـروجنا ... اختلى عم صدّيق بالنقيب وهمس في اذنيه: «مين يصدق هذا الكلام يابا؟؟ شحات وعنده كنز!! أقطع يميني إذا ما كان عنده خدام!!...»

ومـرت الأيـام والـسـنـون... وصار الشحات علماً من أعلام جبلنا... نحكي قصة بـطـولاتـه... ونـبـاهـي بهـا ونـفـاخر... ولم نقبل أن يكون مجهول الاسم والهوية... إذ أصبح يحمل اسم «غريب أبو الذهب» من سكان جبل «سبع البنات».

* * *

سحابة دخان



سحابة دخان

كل شيء فيه يوحي بالأبهة والجاه والثراء والذوق الرفيع... الشكل الخارجي... «الديكور الداخلي»... الأثاث... التحف... النجف... السجاد... الصور واللوحات الزيتية... الحجر المرمري... الفسيفساء... كأن يد فنان أبدعت ذلك القصر المنيف، وكأن أخصائي تجميل أو مهندساً معمارياً سكب فنه في كل زاوية... أو أن مخرجاً سينمائيًّا سلط أضواءه على كل قطعة من موجوداته فغدت وكأنها تحكي حكاية زمن، أو تنادي بصيحات الإبداع تحدّياً وتعدّياً...

ومن بين النغمات الحالمة التي انبعثت من ركن بعيد سمعت وقع أقدام خفيفة متراقصة... ما لبث أن انعكس الضوء الخافت على شعر متموج جميل... فغدا وكأنه خيوط شمس ذهبية في يوم صاف جميل وكأنها تودعه حزينة على فراقه لتغيب وراء الأفق المجهول... وسمعت كلمات ناعمة كأنها همس في الظلام تقول في رقة وعذوبة:

— لا عليك يا فتحية... ابحثي عن السوار في غرفة نومي مرة أخرى... أو انظري في الحمام الوردي لعلي نسيته هناك... أواه ربي!!... لعلي تركته في غرفة الملابس... بالله عليك... ابحثي عنه جيّداً فسيدك سيلحظ اختفاءه من يدي... وسيثور كعادته!!!...

— أمرك سيدتي... سأبحث عنه في كل ركن وفي كل زاوية من الطابق العلوي... فأنا قد خبرت سيدي وغضبته!!!.

— لا تنسي —أيضاً— أن تسألي المربية عنه... فلعل ولدي (سمير) أخذه معه في

يده... أو خبّأه في مكان ما في غرفته...

— نعم سيدتي... سأسألها... وأسأل الله ألاّ يكون سمير قد قام بتكسيره كما يفعل مع بقية لعبه.

— لا أستبعد ذلك... فإنه ولد مدلل كما تعرفين... فأسرعي... أسرعي...

وحانت منها التفاتة إلى حيث الركن الشرقي المفضل لدى زوجها... وفاجأها عندما رأته وراء مكتبه بعد أن عاد مبكّراً يراجع أوراقه كعادته عندما يريد أن يدقق فواتير محلاته التجارية... أو أن يختلي لنفسه حيث تهدأ أعصابه ويرتاح من عناء يوم شاق طويل.

مشت في تؤدة واستحياء... وفي خفة ورشاقة ودون أن يلحظ دخولها الغرفة... سارت كالطيف ووقفت وراءه... ومدت يداً بضّة ناعمة إلى رأس زوجها تداعب أناملها الرقيقة شعره الأسود الطويل الذي انسدل وراء رقبته... وأخذت تمرر أصابعها المزينة بحفنة من خواتم الماس على خصلاته... وموجة من حب تتلاطم بين حنايا صدرها...

فلقد أحبّت زوجها حبًّا أبديًّا جارفاً من أول يوم تلاقيا فيه... وسكن ذلك الحب في قرارة نفسها... وتربّع على عرش قلبها...

كان أول رجل في حياتها... وهبته روحها وعقلها وجسدها... وسمحت له أن يتغلغل في طيّات نفسها...

كريماً... سمحاً... قويًّا... مخلصاً... شهماً... عطوفاً... ودوداً... يحبها حبًّا أعمى... ويغار عليها غيرة جنونية...

وهبط قلبها بين ضلوعها عندما تذكّرت غيرته... وارتعشت أناملها وهي تداعب شعرات رأسه تحسّباً من أن يتنبّه لغياب سوارها الذي قيّد به يدها هديّة منه... وانتفضت كعصفور صغير خوفاً من نظراته التي يرسلها من عينيه فيسلبها إرادتها وتفقد سيطرتها على نفسها تحت وطأة تعابير وجهه الصارمة.

وبحركة لا إرادية سحبت يدها من بين خصلات شعره، وأيقظتها لفتة وجهه المباغتة... وقال لها — وكأنه تذكّر شيئاً مهمًّا:

— كيف كان يومك؟؟..
هل أجهدت نفسك فيه كعادتك؟؟ ألم يؤد الخدم واجباتهم كما ينبغي؟؟..
هل أتعبك هذا الولد الشقي؟؟
قولي... تحدّثي... قصّي عليّ كيف قضيت سحابة النهار؟؟.
ألم يزرك أحد؟؟
هل جاء أخي مروان إلى هنا؟؟.. إن والدتي أخبرتني —بالتليفون— إنه ينوي ز يارتي والاعتذار عن سوء تصرفاته!!!.

وحملق فيها هنيهة وقد أخذتها المفاجأة... فتلعثم لسانها... وأحسّت بجفاف حلقها... فما لبث أن تبدّل صوته... و بدت على محيّاه القسوة والصرامة... وسرت موجة من غضب في دمه... فاحمرّت عيناه... و برزت حدقتاه... فارتعدت فرائصها... واصطكّت أسنانها ولم تجرؤ على الكلام...
فانفجر طارق صائحاً:

— قولي... تكلمي...
ألم يتلكأ السائق هنا عندما أرسلته إليك قبل الظهر؟؟!! لقد تغيّب أكثر ممّا يجب... وعندما سألته أجاب بأنك طلبت منه شراء دواء... أصحيح هذا؟؟
وما هو ذلك الدواء؟؟ ولماذا؟...

و بصوت فيه رعشة... مليء بالخوف... مفعم بالحب... أجابت:
— نعم... إنه دواء لولدي سمير... ولكن ذلك لم يستغرق سوى دقائق معدودة...
— دقائق أو ساعات معدودة... إنك لا تلاحظين نفسك عندما تتكلمين... لقت قلت لك مراراً: بألاّ تتحدثي مع السائق... ولكنك لا تسمعين... لا تقدر ين شعور زوجك... لا يهمك كرامتي... لا تراعين حرمة هذه الدار.
— لِمَ كل هذه الثورة وأنا منها براء؟.. لقد قلت لك: إنني لم أتكلم معه إلاّ كلمات مقتضبة لشراء الدواء...

— إنك تحاولين التستر على الأمر... تحاولين خداعي!! وفي كل مرة لك حجة مقنعة!!

— لماذا أخدعك؟.. أنت تعرف أني أنفذ كل ما تطلبه مني برضي وطيبة خاطر لأني أحبك... لأنك كل شيء في حياتي... وأنت أغلى عندي من أمي وولدي...

— كلام... كلام تردّدينه على مسامعي كل مرة...

— وسأظل أردده دوماً لأنه نابع من قلبي... إن حبك ملك عليّ عقلي وروحي وقلبي... والمرأة دون عقل وقلب ودون روح لا تساوي شيئاً... فأنا أحس أنك وأنا قلبان متّحدان وجسدان منفصلان...

بالله كف عن هذا الهراء والسخف الذي تتوهمه في كل مرة...

— أنا لا أتوهم... بل إن قلبي يحدثني بأنك تخفين عني سرًّا... فا هو هذا السر؟... قولي... اعترفي.

— أنت تعرفني... وتعرف شعوري نحوك... فلا تدع الوهم يقتلك أو الغيرة تأسرك...

وتشجعت قليلاً بعد أن استردت أنفاسها... وتبسمت له في رقة وعطف... ومالت على رأسه تقبله...

وعندما لامست شفتاها جبينه... أحس بحرارة حبها له... فخفق قلبه، ورقت جوارحه، ولانت عريكته... فأخذها بين ذراعيه ونظر إلى صفاء وجهها، وعمق عينيها:

— أواه يا ليلى... كم أحبك حبًّا عارماً... الله يعلم مدى صدقه ومدى تأثيره على نفسي... إن حبك يعمي فؤادي ويجعلني أغار عليك من نسمة الريح إذا لامست وجنتيك، إني أشك في كل نظرة فاحصة تلقى على وجهي مخافة أن تجردني وتعرّي شخصيتي فينكشف للناظر إليّ أو المحدق فيّ فتصبح نفسيتي شفافة تعكس صورتك المطبوعة في فؤادي... المرسومة على أضلعي... المنقوشة في دمي.

وغمض عينيه وخَده يلامس شعرها الذهبي الناعم... وازدادت التصاقاً به...

وشعرت بدفء صدره... وأطربها وجيب قلبه... وسرعة دقاته المنتظمة...

فلقد أحبها من أول لقاء جمعهما... ووجد فيها الزوجة المنشودة التي عقد عليها آماله... فكرس لها حياته وأخلص لها وتفانى في حبها....

حلوة... هادئة... وادعة... كريمة... مثقفة... رقيقة المشاعر مرهفة الحس... أصلها كريم... ونبتها سليم... لم تؤثر فيها الماديات ولم تبهرها عيشة الترف والنعيم فلم تغيّر من طباعها وخصالها الحميدة...

وضمته في حنان زائد... فجذبها نحوه بشدة... وأخذ يخاطب نفسه: «ترى!! إلى متى سيظل الشك يلاحقني و يعذبني؟؟؟ إلى متى ستعصف بي الغيرة وتقض مضجعي وتعكر صفو حياتي؟؟

ألا أستطيع أن أتخلص من هذا الداء؟؟ ألا من فرج أو وسيلة تقتلع مني جذور هذا المرض؟؟.. ألا أستطيع أن أسيطر على نفسي وأن أبعد الوساوس عن أفكاري؟؟ رحماك ربي!!! ما ذنب هذه المسكينة أصب عليها غضبي وأبدل زهرة أيامها أشواكاً وبهجتها تعاسة وسعادتها شقاءً؟؟!!!

ألا يكفي العذاب النفسي الذي أعيشه بعد أن سحقتني بذور الشك وأعماني الغضب فطردت أخي الذي ربيته ورعيته في بيتي وأوجعت زوجتي ضرباً... فاستحققت بذلك غضب أمي وتعذيب ضميري!!! أواه ربي رحماك... رحماك؟..

واسترخت أعصابه قليلاً عندما قفز ابنه إلى صدره... فضمه إليه، وسكب حنانه في قبلة طبعها على خده... وانفلت الغلام من بين يديه يجري... فقام وراءه يحاول مسكه... ووقعت عيناه على بقايا سيجارة مطفأة... فتسمرت قدماه... وارتعشت يداه... وتحجرت مقلتاه... واندفع نحو زوجته يمسكها بقوة وقسوة وكلتا يديه تهزها هزًّا... وتناثرت الكلمات من فمه وهو لا يعي ما يقول... وهي لا تفهم شيئاً ممّا يجري حولها سوى الرعب الذي تملّكها، والخوف الذي ملأها... «سيجارة من هذه؟؟» صاح فيها صيحة جوهرية... انعقد لسانها ولم تدر ماذا تجيب؟... وحمل يداً غليظة وأوقع كفه المليء على خدها... وأمسك شعرها يشده إليه بعنف... وأوقعها على الأرض وانهال عليها ركلاً حتى لم تعد تستطيع الحراك... وعندما أفاقت قليلاً شعرت

بآلام شديدة وحاولت النهوض... فمدت يدها إليه كي يساعدها على الوقوف وفي ثورة عارمة وهياج جنوني انفجر قائلاً:

— لا... لا... أنا لا أمد يدي إليك... أنا لا ألامس يدا خائنة... خائنة... أنت طالق... طالق... طا...

وحملقت المسكينة فيه... ولم تدر ماذا تفعل؟.. ونظرت إلى بقايا السيجارة في ذل وانكسار... وانخرطت في بكاء حار... ووقف سمير بين أبيه وأمه في ترقب وذعر، وفغر فاه حيرة واضطراباً عندما رأى أمه في حالة غيبوبة تشبه الموت وصوت أبيه يجلجل في البيت وسيل من الشتائم ينهار من فمه... وأخذ يبكي بكاءً حاراً... ولم يجرؤ أحد من الخدم أن يخطو خطوة لمساعدة الأم أو إنقاذ الطفل... وتلفت طارق يمنة و يسرة، ونظر إلى زوجته وهي ملقاة على الأرض و بقع من دم تلطخ ملابسها... وحاول أن يمسك ولده إلاّ أنه هرب منه... وفي كل مرة تصدم عيناه بقايا السيجارة يحس بغليان الدم في عروقه وشواظ من نار يكوي ضلوعه فيرتفع صراخه وتغلظ ألفاظه... وأخذ يصيح في الخدم مهدداً... خذوها... احملوها قبل أن أقضي عليها... خذوا كل ما في البيت لا تتركوا شيئاً من آثارها يذكّرني بها... خذوا كل شيء... واتركوا لي هذه السيجارة...

وعندما هدأت العاصفة... وسكنت نفسه، وارتخت أعصابه... تلفت حوله فلم يسمع إلاّ دقات قلبه ووسوسة يقظاته... ونادى زوجته... فلم يلق جواباً... ودق جرس الخدم... فلم يلب النداء أحد، ووقف مذعوراً... وتنبه إلى أن البيت قد خلا إلاّ منه... وأنه قد... وتوقف قليلاً ليسترجع ما دار بينه و بين زوجته... وصعقته الكلمات التي أنهى بها حياته مع رفيقة دربه وحبه وسعادته... وتذكر ابنه الذي ارتسمت صورة الخوف على وجهه وكأن ريشة فنان أبدعها... فانطبعت في مخيلته...

وأحس بالاختناق... وتصبب جبينه عرقاً... وتحسس صدره وسقطت يده في جيبه بحثاً عن منديل فارتطمت بشيء قاس... وبحركة لاشعورية أخرج من جيبه «علبة سجائر»...

ووقعت عيناه على بقايا السيجارة وهو مازال ممسكاً بالسجائر في يده... وفجأة تذكر الموقف والظروف الصعبة التي مرت عليه صباح اليوم التي اضطرته إلى التفكير في إشعال سيجارة لينفث دخانها و يطرد بها همومه وأن يشتري سجائر لأول مرة...

وانهار على مقعده... وسحابة داكنة سوداء أمام ناظر يه وما لبث أن أغمي عليه.

* * *

ضوء القمر



ضوء القمر

انتصبت قامته، وأخذ يصلح من هندامه الأنيق وهو يستمع في أدب جم إلى تعليمات سيّده:

— أريدك أن تكون هنا بعد صلاة العصر — متّصلاً — لديّ موعد هام.

— كما تريد يا عمّي... سأكون هنا إن شاء الله.

— شكراً يا عامر.

وخطا الشيخ صالح صوب البيت ويده في يد صديقه الأستاذ عبد الكريم قائلاً: إن عامر هذا، شاب طيب، عنده نخوة وشهامة كما أنه جيّد في قيادته للسيارة، وطوال هذه السنين الثماني التي عمل فيها عندنا لم يرتكب حادثة ولله الحمد.

وأخذ عامر السيارة إلى القراج، وأغلق بابه خلفه واتّجه إلى الغرفة المخصصة له... تمنّى لو يستريح قليلاً ثم يرتدي لباس الشغل، ليكشف على ذلك الصوت الغريب الذي سمعه في ماكينة السيارة... كان لا يحب أن يختلّ صوت الموتور أو تختلف حركته التي تعوّد عليها، فهو يؤمن أن الإنسان لابد أن يخلص لعمله ويتقنه حتى يبارك الله له فيه، كما كان يعتقد أن الخلل الصغير يقود إلى كبير، والكبير يؤدّي إلى خراب عام...

كان عامر في مقتبل العمر، قدمت عائلته من البادية المجاورة وعاش وتطبّع بطباع المدينة، وإن كان فاته ركب التعليم فإن ثقافته وإلمامه بسبل الحياة وضروبها طبعته بكثير من المزايا الحميدة، وأكسبته التجارب أخلاقاً فاضلة وعادات حسنة.

لم ينتقص عمله كسائق من نفسه، ولم يضعف من شخصيته أمام الآخرين. وكانت له نظرة فاحصة للناس، وميزان خاص ومعيار معيّن يقيّم به الآخرين، وكثيراً ما تحدث بينه وبين نفسه عن الأشخاص الذين عمل معهم، أو قابلهم، أو اختلط بهم، حكم عليهم أو حكم لهم، انتقدهم... سخط عليهم... نقم منهم ولكنه كان لا يبدي تلك المشاعر أو يكشفها لأحد بل يحتفظ بها لنفسه، وكثيراً ما آذته تلك الأحاسيس، ولكنه سرعان ما يجد لها سبيلاً إلى التفلسف.

وكانت نظرته إلى الحياة لا تقوم على ركيزة معيّنة، فهو ساخط أحياناً، راض ومقتنع بعض الوقت، متفائل حيناً، ومتشائم أكثر الأيام.

كان في حياته نوع من الغموض لم يعرف كنهه... كما كانت هناك عقد دفينة لم يستطع سبر غورها أو التوصل إلى مسبباتها، فهو إن صحب سيده معه انكمش في مقعده وركّز حواسه وانتباهه على قيادة السيارة، حتى إذا ما دار بينهما حديث طال أو قصر لا تنبث شفتاه إلاّ عن مقتضب الكلام.

سأله عمّه مرة...

— أأنت متزوج يا عامر؟

— لا... سيدي...

— ألم تتزوج من قبل؟

— أبداً...

— ألا تفكّر في الزواج؟

— مطلقاً...

— ألا تريد إنسانة تعيش معك، تشاركك حياتك، وتقاسمك معيشتك، وتنجب لك أولاداً وبنات وذريّة صالحة...

— (بعد تفكير) لم يحن الوقت بعد. وكل شيء والنصيب.

غير أن تلك الشخصية المقتضبة تتحوّل إلى أخرى مرحة ومنفرجة إذا ما صحبته امرأة أو اثنتان، ويصبح ذلك الرجل الذي يزن الكلام مع سيدة بميزان الذهب ثرثاراً مع السيدات اللاّتي كثيراً ما يملأن سيارته... كان ينطلق مع صاحبات البيت في

الحديث في أدب واحترام، وكان يتباسط مع الزائرات والصديقات في حدود اللّياقة والذوق، وهو في كل ذلك حريص على ألاّ يبدي لهن ما يؤذيهن، ولا أن يتكلم بكلام زائد فضفاض عمّا يسألنه عنه... وكنّ يستزدن من الحديث معه والاستماع إليه... فهو يعرف كيف يملك زمام الحديث، وكيف يوجّهه في صورة تستحوذ على فضولهن حتى يغدو هو المتكلم الوحيد بين ثلاث أو أربع نسوة... قالت له واحدة منهن:

— من أين لك هذا القلب الخالي، والروح المرحة؟؟..

— (أجابها والابتسامة تتدلّى من شفتيه...) لأنّني لم أتزوّج بعد!!!.

— وهل إذا تزوجت ستفقد تلك الروح الحلوة؟؟..

— بكل تأكيد سيدتي... إن الطائر يغرّد طالما هو حر طليق... يقفز من شجرة إلى أخرى، و يرتاد المكان الذي يريده، أما إذا أطبقت عليه الأيدي وظل حبيساً في قفصه فإن الكآبة تخيّم عليه وربّما يموت كمداً...

— وهل الزواج سيمنعك من الحرية، أو الغناء — على حد رأيك؟؟؟ —.

— الزواج يا سيدتي هو الوسيلة الوحيدة التي تقضي على الرجل وعلى حريته ببطء دون ارتكاب جريمة القتل المحرّمة.

— ولكن ألا ترى أنّك تخالف الطبيعة البشرية، وما تعوّدت عليه الخليقة الأبدية؟

— نعم سيدتي... لكل قاعدة شواذ، وأنا الشّاذ في هذه القاعدة...

(وقاطعته أخرى...)

— ولكن ربما كان هذا بسبب ضعف فيك أو في شخصيتك؟ أو... وسكتت حياءً...

— لا سيدتي... ليس هذا ولا ذاك... ولكنّني مؤمن بالذي قلته، بل وموقن منه...

وصاحت الثالثة من الناحية الخلفية البعيدة:

— ألا تشتاق إلى أن يكون لك صبي جميل، أو بنت حلوة تلعب معها، ألا يحن قلبك لبكائها، وتدمع عيناك لفراقها؟

— هذا شعور الضعيف، وأنا لا أريد أن أكون ضعيفاً.

— هذه أنانية. أنت أناني... أناني...

ووافقت أكثر الحاضرات على رأيها... وهز رأسه... وقال فيما بينه و بين نفسه... نعم أناني...

وسكت الجميع عندما أطلّت السيارة على شاطىء البحر، وكان الموج يتلاطم عالياً، وكأنه ينفث غيظه في تحدٍّ ظاهر... فصدرت من عامر زفرة حارة وقعت في أذن «سلمى» أكبر بنات الشيخ صالح وكأنها صوت نشاز تخلل عزف سيمفونية راقصة، فوجدت نفسها تندفع في الكلام رغم محاولاتها المتعددة كبح جماح نفسها مخافة أن تكشف نبرات صوتها المرتعشة عمّا في دخيلة نفسها ومكنون فؤادها:

— هل تحب البحر... أم تخافه؟؟ (وقبل أن يفيق هو من وقع السؤال... وقبل أن يفلت زمام الحديث من يدها... أكملت قائلة) لا يحب البحر إلاّ عاشق... ولا يخافه إلاّ من كان يخاف الحب!!! والذي يخاف الحب إمّا ذو إحساس متبلّد وإمّا لأنه قد مر بتجربة مرة تحطمت على صخرة الحب الجارف أسهمه... (وكأن سهماً انغرس في صدره فلم يعد يحس إلاّ بآلام تعصره، ودماء الحقيقة المسفوحة تملأ حدقتيه حتى خيّل إليه أن موج البحر قد اصطبغ باللون القاني... فتحوّلت زرقة البحر إلى بساط أحمر...) وكأن تلك الفتاة «سلمى» قد أحسّت بالإحساس الخاص بالأنثى، أنّها أصابت منه مقتلاً فأضافت بسرعة:

— إن في البحر أسراراً عميقة، والذي يحب البحر يحبه لأسراره وكذلك الذي يخاف البحر... يخاف أن يغضب منه أو يثور عليه فيكشف عن الأسرار التي يودعها فيه...

— (وجاء صوت عامر خافتاً بطيئاً على غير عادته... وكأنه آت من قاع بئر عميقة..) إنني أحب البحر، وأعشق زرقته، وأهيم بصمته«وآنس إلى سكونه... ففيه أسرار الكون، وماهية الخلود...

— ولكنك تخاف من ثورته، أليس كذلك؟؟

— إن البحر لا يثور إلاّ إذا استفزته الرياح، فالبحر هادىء ساكن بطبعه والرياح تهب وتعصف... وتزمجر فتعكر ذلك الهدوء... والشجرة الوارفة الظلال، الثابت أصلها المتراقص فرعها... تقتلعها الرياح... وتفسد غرسها...

ونحن يا سيدتي مخلوقات ضعيفة أمام هذه الخوارق الطبيعية...

— أجابت سلمى، وقد اشتدت ثورتها «لقد قيل: إن المرآة كالبحر... مهما حاولت الغوص في أعماقها فلن تصل إلى قرار وهذا سر المرأة... فهل تراك تخشى المرأة وتضرب عن الزواج لأنك لا تستطيع التعرف على أسرارها؟»

— سيدتي... إن المرأة أضعف المخلوقات الكونية... وهي بالنسبة لي... كالطريق المعبد الذي يمتد أمامي بلا نهاية... عليّ أن أقود سيارتي بحذر، وأن أوقظ حواسي، وأركز انتباهي لأقطعه.

— ولكن قد يكون ذلك الطريق محفوفاً بالأخطار.

— نعم... قد يكون... لذلك وجب عليّ الحرص، حتى لا أؤذي نفسي أو أؤذي غيري...

— هل يعني هذا أنك لن تحب في حياتك أبداً؟؟

— لم أفكر في ذلك...

— هل يوجد على وجه البسيطة من ينظر إلى الحب الوجداني عن طريق عقله فيدّعي أنه يفكر أو لا يفكر؟ إن الحب لا ينتظر الموافقة بل إن طريقته الهجوم على القلب... وعندها يملأ حياة الإنسان سواء أراد أم لم يرد، فكّر أم لم يفكر...

— هذا جائز... سيدتي ولكن...

— ولكن... قل: إنك إنسان متبلّد الحس، فاقد الشعور، أو إنك لم تجد المرأة التي تستطيع أن تتسلل إلى قلبك فتفتحه... (قالت ذلك وكأنها تنفض عن ظهرها حملاً أثقل كاهلها... وأناخ قوتها).

ومرت لحظة صمت رهيب... أحسّ هو فيها بأنه على وشك الانهيار فلأول مرة في حياته يواجه موقفاً كهذا، ولأول مرة تطرّق مسامعه حقائق لم يكتشفها من قبل، ومر أمام عينيه شريط طويل... فأيامه الأولى وهو طفل غرير كانت جرباء لا حنان فيها ولا عطف، فقد أمّه في الشهور الأولى لولادته، فسقاه أبوه لبن النعاج، ورعاه جده وربّاه كما يربّي بقية الخرفان... وما لبث أن ساقته قدماه إلى المراعي يرعى قطيعاً من الماشية تحت شمس محرقة. ولهب حار، وشب وفي أظفاره صلف البادية، وخشونة الصحراء... لم ير امرأة، ولم يختلط بأنثى صغيراً، أو يافعاً... حتى شبّ وفي سلسلة حياته حلقة

ضائعة مفقودة... وشغلته الحياة بسبلها وتعاريجها وعركته الأيام، وضرسته التجارب... فكان ذلك الفحل الجسور الذي لا يهاب زوبعة، ولا يخاف عاصفة... ودفعه طموحه إلى أن يرحل عن البادية، و يبعد عن حلب الإبل، وروث الماشية، وأن ينزح إلى المدينة... فلقي ما لقي من قواعد الآداب العامة وأخلاق المدينة، وعانى ما عانى من الفوارق الطبقية.. ولم يستسلم، فقد صمّم أن يعيش... سلاحه الصبر، وهدفه العيش بكرامة، ووسيلته في كل ذلك حسن المعاملة وأدب السلوك...

لم يكن للمرأة دور في حياته، لذلك لم يفكر فيها، ولم يرقّ قلبه لها يوماً، إلاّ أنه كان يجد نفسه مندفعاً إليها، ولعل شيئاً ما داخل نفسه يوقظ أحاسيسه من غير أن يدرك كنهه أو يعرف سره لذلك فهو ينجذب إليها دونما وعي، فيتحرر لسانه و ينطلق في الكلام...

وعندما هبط الظلام... وأطبق النعاس جفنيه... جاءه صوت سلمى قويًّا وكأنه ناقوس يدق عالم ماضيه السحيق... وألهبت أحاسيسه تلك العيون النجلاء التي كانت تصوّب نحوه أسهمها... إنها نفس العيون التي يراها كل مرة... ما الذي طرأ عليها؟... لا بل ما الذي طرأ عليه هو؟؟... ولِمَ لم يلحظ من قبل البريق الذي شعّ منها؟؟

وازداد الليل كآبة وصمتاً... وازدادت الوحشة التي شعر بها... وتقلب في فراشه بعد أن شد غطاءه على وجهه وكأنه يبعد عن مخيلته صورتها... واستسلم للنوم... إلاّ أن صوتها تسلل إليه مرة أخرى... وأخذ يستعيد كل كلمة قالتها.

«أحقًّا تعني ذلك؟؟»وهل أنا فاقد الشعور. متبلد الحس؟ ما هو الشعور؟ ما هو الحس؟؟ كلمات جوفاء... لا معنى لها تصدر من فتاة صغيرة... تتلهى بها... تتسلّى بترديدها كما يتسلّى الأطفال بلعبة جميلة...

وصمتت أفكاره قليلاً وكأنها تستريح... وانقلب على جنبه الآخر... وأحسّ فجأة وكأن مطرقة ثقيلة هوت على رأسه عندما تذكّر قولها: «لم تجد المرأة التي تستطيع أن تتسلل إلى قلبك...».

امرأة ... وتوقف تفكيره بعد أن ردد في نفسه هذه الكلمة مرات ومرات... «ما دخل المرأة في حياتي؟... مالي أنا وللنساء؟ ألست أعيش حياة هادئة وادعة لا ينقصها شيء؟؟»

وتعددت الصور أمامه، وتلاحقت الأسئلة في ذهنه «هل أنا حقًّا شاذ في تفكيري في حياتي؟؟ لماذا أختلف عن جميع الناس؟ لا... بل لماذا يربط الرجال مصيرهم مع امرأة؟ ما هو دورها في حياتهم؟؟ هل هي الحاجة إلى إنجاب الأطفال؟ وماذا أصنع بالأطفال؟؟ ماذا... ماذا؟؟»

وهبّ من فراشه وكأن قبضة حديدية أمسكت بعنقه فكتمت أنفاسه، وخرج يستنشق هواءً نقيًّا.

وعندما توسط حديقة البيت هبت نسمة باردة على وجهه فاستلقى على الحشيش الأخضر المزروع، ولمحت عيناه القمر الفضّي... فأغمض عينيه، وداعب جفنه النوم، ورجع بخياله إلى الوراء... إلى الماضي البعيد... أيام كان يفترش الرمال تحت ضوء قمر كهذا وصوت الأغنام يداعب أذنيه وكأنها موسيقى تعزف ألحاناً عذبة... عاوده حنين الصبا، وافتر ثغره عن ابتسامة مشرقة وضّاءة وراح في سبات عميق.

وعندما صحا تحت حرارة الشمس... أحسّ بنشاط يدب في أوصاله... وقوة خارجية لم يعرفها منذ أن وطأت قدماه أرض المدينة...

وقام يبحث عن أشيائه الخاصة، وهو يودّع العائلة الكريمة التي قضى معها فترة من عمره... وحمل معه سره، وقفل راجعاً إلى حيث تصدح أنغام الموسيقى... إلى الطبيعة الأم...

ولم تنفع محاولات الشيخ صالح في إقناعه بالبقاء...

* * *

آخرین بابه یادشیش



آخرك بابه يا دشيش

... وعندما هبط الظلام ولفّ البيت سواد عاتم، أحاطت بها الكآبة القاتمة التي عرفت فيها الشدة والقسوة. وعصرت الوحدة ما تبقّى فيها من أمل، وانفلتت من لسانها تمتمات طالما رددتها في صمت منكسر، وذل ملحوظ...

— متى ربّنا يتوب عليه، ويخلصني من شرها؟؟.

وطافت على أولادها الصغار، وأدارت محاجر ميتة في أرجاء الغرفة، وكأنها ترى بشاعتها لأول مرة، وكأن أولادها المستلقين في كل ركن، دمى تبعثرت من طفل غرير أفسده تدليل أبويه فنثر كل ألعابه أمامه في حماقة وكبرياء...

هذا الولد «سليم» يرقد في ثوب ملطخ قذر، وفي أعلى الثوب تمزيق ملحوظ لابد أن «ولد الجيران» شده منه، أو مسكه من رقبته كالعادة — وبحركة لا إرادية — تحسّست رقبة ابنها، وصدمت عينها في النور الخافت آثار خناق وخدشات.

ومررت أصابعها في شعر ابنتها «زينب» فتعقدت جدايلها والتفت حول أصبعها، وتذكرت أنها لم تمشط لها منذ أسبوع عندما طلبت من زوجها أن يحضر لها «زيت نارجيل» لتدهن به شعرها الأجعد، إلا أنه لم يوف بوعده كعادته مع جميع طلباتها، فحبست لسانها وتمسّكت بالصمت الذي تجد فيه خير علاج.

ونظرت إلى طفلها الرضيع نظرات ملؤها الحنان والعطف والشفقة، والصفرة التي تكسو وجهها الصغير الملائكي تنذرها بإحساس عجيب، ووضعت يدها بحركة لا إرادية على ثديها كأنها تعصره فلم تجد فيه حليباً، ورفعت بصرها في صمت إلى السماء كأنها

تستجدي الرحمة لطفلتها البريئة التي لم تجد شيئاً تتغذّى به... وقامت تبحث عن لقمة تسدّ بها جوعها الذي أخذ يشتدّ في عوائه، ففرّت من عينيها الذابلتين دمعات حزينة وتنهّدت في حزن عميق:

— الله يتوب على أبوكم، عشان نقدر نشوفه ونقوله على اللي نبغاه.

(ونظرت في الأفق البعيد، وكأنها تحلم بلقاء حبيب) قرص عيش ووصلة جبنة —على الأقل— يارب... يارب أنت أعلم بحالي وحال العيال... وانكفأت تبكي...

وعندما أحسّت بخطوات زوجها تقترب، اقترب من ذهنها صوته وهو يردد «لازمته» التي لا تفارقه: «آخرك بإيه يا دشيش» تراها «بياضه» الليلة... والاّ «قفله» واللاّ زي عوايدها رايحه تقول لي «جلا» من بدري.

وسرت في جسدها قشعريرة باردة رغم حرارة الجو ورطوبة المكان، وصكّت أذنيها ضربات يده القاسية على «طبلية» الطعام والتي يستعملها زوجها في لعبة «الضومنة» عندما يجبرها على اللعب معه إذا تأخر جارهم الشيخ سالم في المجيء كالمعتاد كل ليلة... «يا وليّه... صَكّه واحدة آخذك فيها «صايم».

كانت جميلة قد تزوجت حمدان من عشر سنوات خلت، رضيت به زوجاً عندما زفّت إليه في يوم وليلة دون علمها، وعندما تعرفت عليه وجدته رجلاً في الأربعين من عمره يزحف الشيب على رأسه، يعمل بحر نهاره نجّاراً في دكان تحت البيت القديم الذي ورثه عن أبيه... وفي المساء يغلق الدكان ليستقبل صاحبه الشيخ سالم و يبدأ الاثنان في لعب الضومنة حتى ساعة متأخرة من الليل...

أصبحت حياتها رتيبة، مملّة، زوجها لا يسمح لها بالخروج من البيت، وأعمال المنزل لا تستغرق من وقتها سوى ساعة على الأكثر، فالغرفة الكبيرة التي تعيش فيها الأسرة، وغرفة أخرى صغيرة، والمبيت والخارجة والسطوح الفوقاني هو كل همّها وحياتها، ليس عندها ما يشغلها، فكم تمنّت أن تكون مثل بقية أخواتها اللائي يعشن في بيت كبير، حيث الغرف الواسعة والخدم والطبخ اليومي، والملابس الوفيرة والأثاث الفاخر...

وعندما حملت بطفلها الأول أحسّت بدبيب السعادة يغمرها، غير أن كلمات زوجها عند رؤيته الطفل لأول وهلة والتي مازالت تذكرها «ها... جبتي لنا دوباره، ولاّ سليم» جعلت منها كتلة محطّمة من أعصاب، وعرفت بعدها أن ذلك الطفل سوف لا يغير من مشاعر زوجها نحوها أو نحو بيتها... فقد كان فرحه بالولد منصبًّا على تسميته «سليم» حجر الضومنة الذي يتفاءل به في اللعب.

عرفت جميلة أن مصيرها قد انتهى عندما ارتبطت حياتها بهذا الزوج الذي لا يغادر بيته ودكّانه إلاّ يوم الجمعة من كل أسبوع عندما يذهب إلى الحلقة في الصباح ليلتقط بعض الخضار ثم يذهب إلى صلاة الجمعة يعود بعدها مسرعاً إلى البيت متشوّقاً إلى لعبة الضومنة مع جاره الشيخ سالم.

وعندما توسّط رجلها الغرفة صحت من أحلامها المتبعثرة على صوته وهو يسأل:

— ها... يا ولية... عندك شيء نأكله... والاّ زي العادة «مقفّلة في وشّك».

— يا حسرتي يا أبوسليم... منين يا عيني أجيب لك شيء تملي به بطنك... كان الأولاد أبْدَى منك... هو أنت راضي تبطّل لعب الهباب دا وتصير زي الأزواج التانيين...

— بدينا ياختي في الإسطوانة نفسها بدينا... إنتي ما عندك كلام غير هادا أبداً... ياوليّة... إذا ما لقيتي شي تهرجي فيه انكتمي أحسن لك...

— وأنا رايحه أفضل مكتومة كدا لحد متى؟؟. ها... (وكأن وحشاً كاسراً استيقظ داخلها فجأة... فوضعت يدها على جانبي وسطها ووقفت أمامه وكأنها تتحدّاه...)

قوللي يا سيدي انكتم لمتى؟؟.. حتى أشوف البنت الصغيرة تموت من الجوع والمرض زي ما ماتت أختها قبلها.

— جينا لحكاية الموت تاني... ما قلت لك ألف مرة الموت بيد الله يا وليّة... هُوَّا أعطى وهُوَّا أخد... يعني كنتي إنتي تقدري تردّي المكتوب.

— ما أحد يقدر يرد المكتوب... والاّ ما كان رضيت أجلس عندك يوم واحد... لكن لو كنت رجّال زي بقية الرجال كنت قدرت تعشّي أولادك... وتكسيهم وتشوف حالتنا كيف...

- يا وليّة بلاش نكد في هادا الليل... طيب... وآخرتها معاكي إيه؟؟ تبغي جارنا الشيخ سالم يسمعني أزعق معاك يحسبني مِتْعَكْنِنْ من الغُلب... ما كفاية نكد من الصبح لدحين... أنا اتْصَبَّحْت بِوِشْ مين اليوم... المنشار كان راح ياكل يَدّي... والشيخ سالم عمره ما يحلم انه يقفلها عليّ مرتين في ليلة واحدة... طيب داأنا بألعب ضومنة خمسة وعشرين سنة... مافي أحد قدر يقفلها عليّ و ياكلني أكل... وتجي إنتي في النهاية وتفتحي لي حلقك... انْسَدّي يا وليّة والاّ أخليها خَلْ عليكي...
- تخليها خلْ... تخليها شرْش أنا ماني منسدة ولا راح أسكت لك بعد اليوم... ياتصحى وتفوق زي الأوادم... يا...
- وكمان صرتي تهددي يا وش النحس... انتي فالحة في إيه غير الزعيق والنكد...
- أنا وش النحس أنا... و... (ولم تستطع أن تكمل كلماتها التي وقفت في حلقها وخنقتها العبرات... وجرت إلى طفلتها الرضيع تسكت من صياحها الذي أخذ يشتد...)

وحمل حمدان فراشه وصعد إلى السطوح لينام تاركاً وراءه صبية يصيحون و يتضرّعون جوعاً وحاولت جميلة أن تهدأ بعد أن أسكتت أولادها... غير أن كلمات زوجها أخذت ترن في أذنيها... «وش النحس»... «وش النحس»... و بكت كما لم تبك من قبل... بحرقة، ومرارة و يأس... وملأ الحقد قلبها على حظها الذي أوقعها في زوج كهذا... و بكت على نفسها عندما تذكرت أنها أقل أخواتها حظًّا وأكثرهن دمامة... و بكت على طفولتها المعذبة عندما ماتت أمّها بعد أن تركت لها أختين صغيرتين وكان عليها أن ترعاهما وأن تسهر على راحتها... و بكت على حالها عندما كانت تلقى من والدها القسوة والتعذيب... وتحسّست ندبة كبيرة على جبينها وتذكرت كيف ضربها بعصاه التي يتوكأ عليها لأنها لم تلبّ رغبة أختها الصغرى المدلّلة عنده...

وكفّت عن البكاء... وأخذ حقدها يملأ أرجاء نفسها عندما مرّ أمام عينها شريط الذكريات الدامية...

لم يوافق والدها على زواجها من أول رجل تقدم لها... كان عليها أن ترعى أختيها بعدها... فتزوج من أختها الثانية وهي تعيش الآن عيشة هادئة مترفة... ولم تستطع أن تناقش أباها في أمر زواج أختها الصغرى لأنها ابنته المحبّبة إلى نفسه... حتى إذا خلا البيت إلاّ منها سئم الحياة معها فأسرع إلى الزواج من امرأة أخرى... وكأنه أراد التخلص منها فزوّجها إلى هذا الزوج النجار الذي لا يملك في حياته سوى المنشار والمطرقة وعلبة الضومنة... وداهمتها نوبة أخرى من البكاء... «هذا حظي... وهذه دنياي... حياة ملؤها التعب والحرمان... زوج تعيس فقير بائس... وأطفال مرضى جياع... وجسمي ينهشه المرض... أوّاه ربّي... هل أطمع في خلاصي من هذه الدنيا؟؟... هل ألجأ إلى إحدى أخواتي؟؟. هل أعود إلى أبي وقسوته؟؟. وأطفالي من يرعاهم؟؟. من سيقبل أن يحتضنهم أو أن يقبل رجلاً كهذا؟؟... «ورفعت رأسها وهي تسمع صوت المؤذن «الله أكبر... الله أكبر»... وسمعت صرخة الجوع تعوي في بطنها...

وسمعت أقدام زوجها تتّجه نحو الغرفة وهو يردّد:

«أصبحنا وأصبح الملك لله... يارب على بابك يا كريم... يارب بيّضها في وجهنا يا كريم...» وعندما لمح زوجته قابعة في ركن وعينها ممتلئة بالدموع... وآثار السهر والتعب بادية على وجهها وطفلته في حضنها... رق قلبه واقترب منها ومسح شعرها بكفّه وهو يقول: «يا وليّة... احمدي ربّك على كل حال... الدنيا أرزاق... وهادا حظنا وهادا نصيبنا... وحالنا أحسن من غيرنا... بكره تفرج... واللي خلقنا ما ينسانا...»وتوضأ... وشرب كأساً من الماء... واتّجه لصلاة الفجر... وفي الطريق... ردّد في نفسه «يارب... بزبون يبغاله شغلة جامدة... روشان... والاّ طاقة... والاّ باب مخلوع... المهم شغلة تجيب لنا كم قرش نصرفها على العيال»..

وتحسّس حزامه فوجد النقود التي ادّخرها ليوم الجمعة.

وعاد إلى البيت محمّلاً بالخضرة والفاكهة والخبز... وغطت وجهه ابتسامة عريضة عندما رأى الأولاد يتناتشون الطعام وأمّهم مشغولة عنه بالطبخ...

وتـذكّـر الـشـيـخ سـالم فـقـال في نـفـسـه: «إن ما خليت الدشيش يموت في يدك يا سـالم... لا تـسـمّيني حمدان... طيّب عمرك كلّه وانتا ما تعرف آخرة الدشيش بإيه... كيف... كيف قفلتها عليَّ البارح مرتين؟؟»

«ما أدري... سبحانه يوضع سرّه في أضعف خلقه».

* * *

حوار



حوار

رمى «الكتاب» جانباً، وتمطّى بعد جلسة فكرية مع صفحات فلسفية استغرقت أمسية ذلك النهار المتباطىء، وتمنّى لو أنه يخرج خارج الغرفة لاستنشاق هواء نقي عليل، ولكنه سرعان ما تذكّر لفح السّموم فآثر البقاء في الغرفة المبرّدة، وأحسّ أنه متضايق من نفسه، متثاقل بالأفكار الفلسفية التي كان يقرؤها، وشعر برغبة في الكلام... في الحديث حتى ولو مع نفسه... وبدأ يسترجع ما كان يقرأه... وفجأة قفز إلى ذهنه سؤال عريض...

— ما هو رأيك في نظرية فرويد؟
— آه... لا أستطيع أن أحكم عليها... فلم أنته منها بعد... ولكن يتبيّن لي أنها تمثل بعض الواقع في حياة الإنسان... وعلى الأخص مرحلة المراهقة، وفورة الشباب...
— ولكن فرويد لم يخص مرحلة بعينها، بل إنه أرجع التصرف والسلوك الإنساني إلى الجنس منذ بداية الطفولة...
— نعم... ولكن هل علينا أن نصدق كل ما قاله فرويد في فلسفته؟؟.

وأحسّ بصداع أو ببادرة صداع، فتوقف عن مساءلة نفسه... وقام يمشي في أرجاء البيت... حاول أن يعد لنفسه قدحاً من الشاي... أدار جهاز الموسيقى لعلّها تخفف من وحدته وتزيل عن نفسه الكآبة التي أخذت تتسلّل إليه... ولكن دون جدوى.

وتثاقلت الدقائق أمامه تمرّ وكأنها مشدودة إلى سلاسل متينة ووقعت عيناه على التليفون... وخطر له أن يكلم صديقه عبد الرحمن السالمي، فهو لم يره منذ أيام.

وبحركة آلية، وفكر شارد أدار القرص وليس في ذهنه أي فكرة أو حديث، سوى رغبته في التخلص من الضّيق الذي لفّه.

وبصوت فيه رعشة طفولية، وضحكة موسيقية تسرّبت إلى أذنيه جعلته يعتدل في جلسته وكأنه جندي صدرت إليه الأوامر بالانضباط...

— هاللو... أهذا أنت!!! دائماً أنت متأخر في مواعيدك، دائماً تجعلني أنتظر... يروقك أن تتركني مشدودة الأعصاب أنتظر رنين الجرس... وستكرر في كل مرة نفس الكلام... نفس العذر... أليس كذلك؟؟... (ومرت لحظة صمت قصيرة... انعقد فيها لسانه، وتحجّرت مقلتاه، على سماعة التليفون، وعندما همّ بالكلام... كان ذلك الصوت النّاعم قد نفذ إلى أذنيه كما تنفذ سكّينة حامية في قرص من الزبدة، وتسلّل إلى عروقه... ووصل محطته الأخيرة... إلى القلب، فلم يدر بماذا يجيب...

— لماذا أنت ساكت؟؟. لماذا لا ترد عليّ؟ هل قسوت عليك؟؟ (وبفتور... ودلال... أردفت)... إني آسفة... أنت تعرف كم أنا عصبية ولا أحب الانتظار غير أنّي هذه المرة... (وفجأة انفجر صوته وكأن قوة مجهولة أيقظته...)

— سيدتي... إني آسف... يبدو لي أنّي أخطأت الرقم الذي أردته... إنك لم تعطني فرصة لتصحيح ذلك الخطأ... غير أنّي أعترف... فلقد كان لرقّة صوتك، ونعومة كلامك سحر عجيب على نفسي، لم أرد أن أقطعه... هذا من جهة... ومن جهة أخرى... لم أشأ أن أخيّب ظنّك من أول وهلة وأنت قد طال بك الانتظار... إنه ولا شك قاسي القلب... متحجّر العواطف، متبلّد الإحساس إن كان يعرف أنّك تنتظرين مكالمته وهو عنك مشغول... سامحيني سيدتي لتدخلي في ذلك، ولكني كما قلت... لم أتمالك نفسي... وأكرر أسفي...

— ولكن من أنت؟؟ ولماذا أدرت نمرتي... لماذا طلبتني وماذا تريد؟

— ليس مهمًّا من أنا، وأصدقك القول أنني لم أقصد أن أطلب نمرتك بل إنّي لا أعرفها الآن، فيما لو حاولت أن أجرّب حظّي مرّة أخرى... لقد أردت أن أكلم

صديقاً لي، و يبدو لي أنّني أخطأت في الرقم... كنت شارد الذّهن، متضايقاً من نفسي، أحسست بكآبة عميقة وحزن شديد، ضقت بالوحدة وضقت بالقراءة... أردت أن أتسلّى مع صديقي بالحديث، أردت أن... (ومرّت لحظة صمت...).

— (وجاء صوتها من جديد يهزّ كيان نفسه) ماذا أردت؟. قل... تكلّم إن في حديثك حلاوة لم أعهدها، ولك طريقة عجيبة في شد الانتباه لقد جعلتني متشوّقة إلى معرفة سبب ضيقك، ومصدر كآبتك... إنّ عندي من الفضول ما يكفي لإزعاجك إن أردت الإجابة.

— ولكن سيدتي... ماذا يفيدك إن عرفت ذلك؟ أنت أيضاً كنت مثلي في ضيق شديد، ربّما تختلف أسبابه ودواعيه.

— نعم كنت في ضيق ولكن...

— ولكن ضيقك مصدره معروف ومعلوم أليس كذلك؟.. كنت تنتظرين مكالمة ما... لا أعرف —ولا أريد أن أعرف— مِنْ مَنْ... أمّا أنا فقد كنت أقرأ في كتاب... في نظرية فلسفية لفرويد لم أوافقه رأيه، وأردت أن أكلّم صديقي الذي استعرت منه الكتاب فهو من أنصاره...

— وكنت تريد أن تناقش معه وجهة نظرك أو اختلاف وجهات نظركما أنت والكاتب —أو أنت وصديقك...

— تماماً... ولكنّي أجد نفسي الآن و... (سكت...).

— تجد نفسك تناقش أو تتكلم مع شخص مجهول، إنسان لا تعرفه...

— هو كذلكْ... سيدتي... ولكن... هل لي أن أسأل من أنت؟؟

— وماذا يفيدك إن عرفت... (قالت ذلك وأعقبتها بضحكة صغيرة رنّانة أحسّ كأنّها تيّار كهربائي سرى في عروقه...)

— يبدو أنّك سريعة الثأر... ولا تدعين الدّين يمضي إلى الغد...

— واحدة بواحدة... و...

— لا تكمّلي أرجوك... فما قصدت ذلك، ولو كنت أدري أنّني سأمضي معك في الحديث وأنا واقع تحت هذا التأثير من الشعور، وأنّك سوف تمضين معي على

نفس الخط، ربّما يدفعك شعور آخر قد يكون موازياً إلاّ أنّه يمضي على كل حال... أكنت...؟

— يبدو لي من سياق كلامك أنّك إمّا أن تكون مهندساً، أو فيلسوفاً... فالافتراضات تلعب دوراً كبيراً في كلامك، كما أن لمقاييسك اعتباراً خاصاً لبرهنة ذلك الافتراض أو الوصول إلى نتيجة ترضيك... ولكن حذاريا... (وترددت قليلاً...) حذاريا أستاذ أن تفترض في نفسك أستاذاً في فصل فطريق الإقناع طويل أمامك.

— لست بمهندس... ولا أنا بفيلسوف، ولكني أسعى إلى الوصول إلى الحقيقة، وأرغب في معرفة المجهول دوماً، وأنا أعترف معك أن الطريق أمامي طويل، وكثيراً ما أقع في الخطأ، ولكن يعجبني أن أقع في الخطأ نتيجة للاجتهاد الذي كثيراً ما يكلّفني الكثير من الجهد والأرق... من أن أبقى حاجراً على فكري، محلّقاً فيما وراء الأفق، لا أستطيع أن أرضي رغبة النفس في معرفة المجهول أو أن أسكت صرخة الحقيقة.

— لا... (قالت ذلك بطريقة استعراضية) وربّك إنّك لفيلسوف ليتني أستطيع أن أسير معك على هذا الخط... فإن الفكر والتفكير مسألتان كثيراً ما حاولت إفناء نفسي فيهما... ولكن...

— ولكن هذا... (أجاب في لهفة)

— ولكن... نحن النساء لا نهتمّ كثيراً بذلك... إن جلّ اهتمامنا يتّجه نحو أشياء أخرى أكثر تفاهة... أليس كذلك!!!؟؟

— أكثر تفاهة!!! ماذا تعني؟؟

— ألست تعرف؟؟

— نعم.. لست متأكداً!!!

— ولكنك رجل... والرجل لا بد أن يعرف عالم التّفاهة الذي تعيش فيه نساء هذا العصر، والذي قبله.

— أتقصدين... عالم الأنوثة... والأزياء وحديث الصديقات...

— وهل تعتقد أن هناك عالماً آخر؟؟؟

— وحتى أنت أيضاً... (وسكت قليلاً، وعندما لم تتكلم... تابع كلامه) لعلك تستغربين إذا قلت لك: إنني أعيش وحيداً... لم أتزوج... لا لشيء إلا لأني تعبت في البحث عن امرأة تستطيع أن تفهمني كرجل، وأن تفهم واجباتها كأنثى... إني لا أرى عالماً للمرأة سوى بيتها. هو مملكتها... هو أملها... كل حياتها... فإن فقدت الرغبة في بناء البيت فقدت العنصر الأساسي الذي يجعلها امرأة تستحق أن يضحي الرجل من أجلها بحريته «وسكت قليلاً» ثم انفجر في صوت قوي... ماذا تريدون من هذا العالم؟؟ وما الذي يجعل الواحدة منكن تهتم بقضايا الفكر، ومشاكل الإنسان والعصر الحديث؟.. لماذا لا تتركن ذلك التيار الصعب يجرف الرجل وحده وتكتفين بالبقاء في الشرفة تطل الواحدة منكن بوجه ضاحك وابتسامة مشرقة على مجرى النهر يدحرج أمامه المشاكل والصعاب أمام الرجل فإما أن تجرفه معها، وإما استطاع أن يتغلب عليها أو يفلت منها... ليست لكن قدرة على ذلك، ولا طاقة لكن على العمل الشاق... فأنتن لم تخلقن لذلك... إن في تكوينكن نقصاً فطرياً...

— أنت رجل... وهذا هو منطق الرجل دائماً، لا أريد أن أقول أنانية. فالأنانية طبع فيكم أيها الرجال وليست تطبّعاً، تريدون من المرأة أن تبقى في البيت كقطعة الأثاث... خدامة نظيفة لكم... أليس كذلك؟؟ لقد أمضيت من عمري سنوات طويلة أدرس، وأبحث، وأسهر، وأبكي، وأتعب... وصرف أهلي على تعليمي مبالغ كثيرة. لماذا؟؟ لماذا؟؟ قل لي بربك: هل أجلس في البيت لكي أرضي غرور الرجل، أليس عليّ دور أؤدّيه، ألست عضواً عاملاً، ألست نصف المجتمع؟؟ أم تريد أن تكون المرأة عضواً مشلولاً... نصف ميت؟

— ألا يكفي أن تكون المرأة مثقفة ثقافة تؤهلها لأن تكون سيدة بيتها، تعرف كيف تسعد زوجها، وتعرف كيف تربّي أطفالها تربية صالحة؟؟؟ تلك هي الثقافة... المطلوبة في المرأة... ذلك هو الهدف الذي يجب أن تسعى إليه...

— حقاً إنّك إنسان أناني... أناني حتى بعد أن وصلت من التعليم تلك المرحلة التي افترضت أنانيّتها أنّك مثقف ثقافة عالية... (وسكتت قليلاً) يبدو لي الآن أن أحمد رغم أنه ليس مثقفاً مثلك إلاّ أنه في نظري أكبر فهو يعرف كيف يمتدح

أفكاري و يقدرها... إنه لا يترك فرصة إلاّ و يعبّر لي فيها عن تقديره واحترامه لكل حركة أو تصرف أقوم به...

— ومن هو ذلك العبقري أحمد...

— إنه خطيبي... خطيبي الذي كنت أنتظر مكالمته قبل أن يلوح لي صوتك في الأفق.

— معذرة سيدتي... ولكن هل قلت: إنه ليس مثقفاً؟.. إنه إذاً الرجل الذي استأجرته لكي يرضي غرورك كأنثى، لا تقولي: إنك ثرية أيضاً لئلاّ يتبادر إلى ذهني أنه يطمع في مالك أو مال أبيك من بعد عمر طويل...

— يالك من رجل مغرور.. ولكن كيف عرفت أنني؟..

— و يالك من امرأة حمقاء... أتدّعين الثقافة والتعليم وترضين برجل لا يملك من مواهب سوى خداعك وتحريك مشاعرك كأنثى؟.. هل تقبلين به زوجاً وهو أقل منك ثقافة لا لشيء إلاّ لكي تشعرين بأنك متفوقة عليه فكرياً ومادياً؟ هل هذه هي المساواة التي تسعين إليها؟؟ هل هذه هي الحقيقة الضّالة التي وجدتها؟؟؟ دعيني أهنّئك على عبقريتك... ودعيني أهنّىء خطيبك على ثرائك... (وفي انفعال انفجر قائلاً): «وطابت ليلتك.. سيدتي»... وحاول أن يلقي بسماعة التليفون قبل أن يسمع صوتها مرة أخرى قويًّا.. مملوءاً بالأنوثة...

— ولكن كيف تعطي لنفسك الحق في الغضب؟.. ومن أين لك أن تثور على واحدة لا تعرفها... ولا تعرفك؟.. قل لي على الأقل... ما اسمك؟

— إن اسمي زكي... زكي سليمان... ولا يهمني أن أعرف من أنت، وغضبي ليس مصدره أنت... بل هي القضية التي كنت تتحدّثين عنها... قضية المرأة المثقّفة التي لا تعرف وسوف لا تعرف الحكمة وراء الثقافة والتعليم... تظن الواحدة منكن أنّها إذا ما تعلمت ووصلت مرحلة عالية من الثقافة والتحصيل أصبحت تفوق عالمها... وعالم الرجل... وأخذت تتظاهر بذلك وتتباهى... وربما تعالت على زميلها الرجل لا لشيء إلاّ لأنّها أنثى...

ولما لم يصله صوتها صاح قائلاً: «هل تسمعين؟..» وكأنها أفاقت من حلم أو سبات عميق..

- «نعم... نعم...» ولكن... هل قلت: إن اسمك... زكي سليمان...؟ أنت الرجل الذي يعمل موظّفاً في شركة.....
- وبدهشة واستغراب أجاب «نعم.. ولكن كيف عرفت..؟» وقبل أن تروي غليله ألقت عليه تحية وأقفلت سماعة التليفون.

وعندما أفاق لنفسه بعد ساعات... أخذت علامات تعجّب كثيرة تتراقص أمام عينيه:

«من هي... يالي من غبي!... حتى اسمها لا أعرفه... وهل هي مثقفة ثقافة عالية كما ظننت؟؟ هل قسوت عليها في الكلام؟؟؟

«ثم.. كيف عرفت أنني أعمل في تلك الشركة؟؟ لعلها قرأت اسمي في قضية الاختلاس والرشوة؟؟؟

وبدأ يتخبّط يمنة ويسرة في أفكاره... ووقع نظره على التليفون، وقفز واقفاً وحاول أن يتذكّر النمرة التي أوصلته إليها... ولم ينجح وقبل أن يستدير ألقى نظرة أمل على التليفون لعلّه يناديه... لعلّه يريح أعصابه وأفكاره التي أخذت تتزاحم..

وما هي إلاّ دقائق حتى هزّ كيانه رنين الجرس... فألقى بنفسه على التليفون ورفع سماعته بيد مرتعشة وقلب واجف وهتف:

- آلو.. أهذه أنت مرة أخرى... و... وسكت فجأة كمن وقع في حيرة ويأس.
- آلو... زكي... (مع من كنت تتحدث قبل قليل؟..).

ولم يدر ماذا يجيب؟.. لقد عرف صوت محدّثه... واستغرب أن يطلبه في تلك الساعة... جاءه الصوت مرة أخرى... الصوت الذي يتحدّث إليه كل يوم في الشركة... صوت المدير...

- مرحباً أستاذ... لقد كانت محادثة غريبة... أظن أنّني أضعت وقتي فيها...

فتاة ضالّة أرادت أن تلهو أو أن تقطع الملل بالحديث في التليفون كعادة الفتيات...

— وماذا كان الحديث؟..

— (وبعد تردّد...) حديث تافه سخيف لا معنى له...

— ولكن لماذا اشتركت فيه واندفعت تتحدث بحرارة وحماس؟..

— أنا... أنا تحدثت بحماس وحرارة... و(وكأنه استدرك ما ينبغي أن يقوله) ولكن كيف عرفت ذلك؟؟.. قالها بدهشة بالغة.

— لا عليك... يمكنك أن تجيء إلى بيتنا الآن لتعرف... أنا في انتظارك...

وفي الطريق... افترض عدة افتراضات... ولكن لهفته وشوقه إلى معرفة السر أزاحت عن عينيه كل ما قد يوصله إلى الحقيقة...

وعندما وقف على الباب بادره وجه سمح بشوش... وفي صوت رقيق جميل سمع فيه نبرة التليفون قالت:

— أهلاً أستاذ زكي...

ولم يمهله مديره في العمل لكي يسترد أنفاسه، بل قال:

— منذ أن أنهيت قضية الاختلاس والدور الذي أدّيته في سبيل سمعة الشركة والأمانة التي اتّصفت بها في معالجة الموقف وأنا أفكّر في إسناد مسؤولية إدارة أعمال الشركة إليك...

ولكن يبدو أن الموقف قد تغيّر الآن... فعليك أن تختار الآن... بين هذه...

ونظر إلى ابنته التي ابتسمت في دلال... وبين تلك

ولم يدر ماذا يجيب... وهب واقفاً...

وبادره الأستاذ عبد الله قائلاً:

— إلى أين؟...

— إنّني ذاهب أقدّم استقالتي...

ونظر إليها من طرف خفي... فبادلته النظرات... سريعة... معبّرة...

وخرج... ولم يودّعه أحد... على أمل العودة.

اللسان المر


دياب

اللسان المر

أخذت خطواته تتثاقل تدريجيًّا عندما وطئت قدماه البيت... ودارت عينان حائرتان في كل ركن من أركانه... تحجّرتا على مقعد خال اعتادت زوجته أن تجلس عليه دوماً... واندفع يجري إلى غرفة طفلته بعد أن حرّكت الرياح شبّاكها... فقد وقع في أذنيه صوتها وهي تبكي وتصرخ احتجاجاً... وشعر بدقّات قلبه تعلو وتهبط في حركات منتظمة سريعة... وأخذ السكون يلفّه من كل جانب... وعندما أغلق النوافذ وأرخى الستائر لفّ الغرفة ظلام دامس كالظلام الذي يغلف نفسه... وراح الهدوء يسيطر على أرجاء البيت و يتسلل إليه شيئاً فشيئاً...

هنا تعوّد أن يجلس أمام كرسي زوجته المفضّل، وتحت قدميه تمرح الصغيرة وتلعب... لا... بل هناك مجلسها الذي يجذبها إليه كي تمارس ألعابها ونشاطها الهندسي في جهاز الراديو أو التلفزيون.

وشعر بحاجة شديدة إلى فنجان قهوة يهدّىء من روعه، وتحرك متثاقلاً إلى المطبخ... ودارت عينان زائغتان في كل ركن... وأخذت يداه في حركات عصبية تفتح أدراج الدواليب بحثاً عن البن... وأخذ يبحث عن الوعاء الذي يصنع فيه القهوة... للّـه.. ما أشدها لحظات!.. كيف أستطيع أن أصنع قهوة تزخم رائحتها أنفي وأتلذّذ بطعمها — كالعادة —؟؟ ما هذا المسخ الذي عملته؟... ليس له طعم ولا مذاق...

وعاد إلى كرسيه وقد اشتدت وطأة الهدوء... وظن أن العالم قد خلا من الحركة... ولم يعد يسمع غير ضجيج أفكاره، وصراخ ضميره...

وقرر أن ينام مبكّراً علّه يرتاح من هذا الصمت أو يتناساه!!... وامتدت يده في طريقها إلى ما تعودت عليه... ولكنها لم تلق إلاّ برودة الفراش تلسعها... وانتفضت إلى الوراء في ذعر... ولم يشعر بالأنفاس الحارة بجانبه... وأخذ يتقلّب في فراشه... ضجراً... قلقاً... ولم يدر كم مضى عليه وهو (مبحلق)... غير أن تأمّلاته وشريط الحوادث لم ينقطع... وخيّل إليه أنه يسمع صراخ طفلته... فقفز مسرعاً إلى غرفتها... واستوقفته وهو عائد، صورة معلّقة على الحائط تجمعه هو وزوجته...

إذن فقد خرجت!! ولم يبق خلف رحيلها سوى الذكريات وهذه الصورة.

خرجت... خرجت... وأخذ يردد هذه الكلمة إلى أن ارتمى على الكرسي، ونور خافت، وصمت مطبق يلف جو البيت بكامله...

وجذب كتاباً من المكتبة وحاول أن يقرأ... ومرت دقائق لم يفهم خلالها شيئاً... وازداد حنينه إلى القهوة... وافتر ثغره عن ابتسامة ظلّت حبيسة منذ فترة... وصوت من بعيد يردد صدى كلماته... خرجت واسترخى في هدوء...

إنها ليست أول مرّة تفارقه فيها زوجته... ولكنها الأخيرة... فلم تكن الحياة تسير بينهما على وفاق... كانت هناك فجوة عميقة وهوّة سحيقة تفصل بينهما... كانت عقليتاهما مختلفتين... وكان مزاجاهما متباينين... وكان الطريق إلى التفاهم بينهما صعباً.

هو... بثقافته العالية، وعمق تفكيره، وحلمه الواسع، وحبه للخير، وصلته للرحم.

وهي... بصلفها، وكبريائها، وشموخها الذي رضعته من ثدي أمّها وحبها لذاتها، وأنانيتها المتناهية ولسانها المر السليط.

وكانت العقدة المستحكمة في قرارة نفسها أنه متفوّق عليها فكرياً وأن مراحل كبيرة من التعليم والثقافة تفصل بينهما... وكثيراً ما حاولت أن تعوّض ذلك النقص بالغلو في أناقتها والتباهي بزينتها والتفاخر بثروة أبيها.

وجذب نفساً عميقاً من سيجارته... وكأن صوتاً من الماضي القريب يناديه... فحاول أن يصم أذنيه، وأن يتغاضى عن ذلك الهاجس... إلاّ أن أفكاره كانت تتضارب وتتجاذب... وبرز من خلال تلك المعركة الحوار أو الخصام الذي أدّى إلى أن

تترك زوجته البيت وترحل عنه... لقد كان ذلك الموقف نهاية لمأساة بدأت منذ أن اقترنا قبل ثلاث سنوات... كانت تجرجره معها في حوار طويل تافه لا ينتهي إلاّ من حيث بدأ من جديد... كان يحسّ أنّها تريد أن تضايقه أو أن توغل صدره ضد والدته وأخته وأخيه الصغير، وكان يشعر بحساسية الرجل أنها تريد أن تستحوذ عليه، أن تمتلكه لنفسها...

قالت له:

— ألا تريد أن تتوقف عن القراءة قليلاً:

— إنني لم أبدأ بعد القراءة...

— ولكنك صامت... عابس، كأن كابوساً ألقي على صدرك.

— لقد كنت أتصفّح هذه المجلة بينما تخرجين من غرفتك...

— وهل تدري بم كنت مشغولة؟؟ ألم تلاحظ شيئاً؟؟

— لا... وكيف لي وأنا جالس هنا؟..

— طبعاً لا تدري... لأنك لم تعد تهتم بي... لم أعد طفلتك المدللة التي كنت تهيم بها حبًّا... أنت لا تحبني لذلك لا تهتم بي...

— ها نحن مرة أخرى نعود إلى الضرب على النغمة المعتادة... ألا ترين أنّك في كل مرة تقحمين الحب في كل موقف؟..

— وهل أجدى معك ذلك؟.. وهل حرّكت فيك كلمة الحب مشاعرك الجامدة؟.. ليتك تقول لي أي صنف من الرجال أنت؟؟.. إن هذا «الفستان الجديد» الذي أرتديه الآن، كلّفني الكثير من الوقت والجهد والمال... هل لاحظته؟؟ هل أبديت إعجابك به؟ وامتدحت ذوقي؟ هلاّ سألتني من أين جئت به..؟؟ إنك إنسان بلا قلب... أناني... لا يهتم إلاّ بنفسه وكتبه و... وأهله... أما أنا فلا يعنيك من أمري شيئاً... سواء لبست ثوباً جديداً أو قميصاً مهلهلاً... إن المرأة يهمها أن تلبس وأن تتزيّن، ولكن... يهمّها أكثر أن تتلقّى المديح والإطراء... خصوصاً من زوجها... من الرجل الذي تعيش معه... وتشاركه حياته، ويحبها وتحبه... و

— ألا ترين أنه يجب أن تتوقفي قليلاً وإلاّ مضى علينا النهار قبل أن نتناول

غذاءنا... إنني مُتْعَب ومرهق وجائع... هل نسيت أني خرجت الصباح —وأنت نائمة— دون أن أتناول فطوري؟.. فأرجو أن تؤجّلي بقية الجدل إلى ما بعد الغداء...

— آسفة... لم يكن لدي وقت للطبخ... لقد أخذ منّي الفستان كل وقتي وكنت متأكدة أنّك سوف تعجب به سيما وأنه آخر صرخة في عالم الأزياء...

— ولكن آخر صرخة من الأمعاء تنادي وتطالب بالأكل...

— أنت لا تحاول أن تفهمني... لقد قلت لك: إنني لم أتنبّه إلى أن الوقت قد سرقني...

— لا شك أن فستانك جميل... ولكن أجمل منه ذلك الطبق الذي أنهمه من يديك.

— أنا لم أر رجلاً شرهاً مثلك، أحدّثك عن الفستان وتحدثني عن الأكل، أخبرك عن «الموضة» وأطلب رأيك... تجاوبني عن الطبق، إن هذه إهانة لي وإهدار لكرامتي ورغبة في تحطيمي... إن العيش معك أصبح لا يطاق... أنت متبلّد الشعور، ميّت الأحاسيس، وأنا لا أستطيع أن أعيش مع إنسان لا يقدر الذوق و«الموضة».

— ولكن يا عزيزتي... لماذا لا تختارين الوقت المناسب لإبراز مواهبك في الفن؟... والفرصة السانحة لعرض الأزياء... أنت تعرفين موعد رجوعي من العمل، وتدركين أني لا أتحمّل الجوع ولا أطيقه... إضافة إلى أني قضيت كل وقتي في عمل متواصل مرهق... أفلا يحقّ لي أن أرتاح وأتناول طعامي أولاً ثم بعد ذلك أعرضي ما شئت من أزيائك...

— ماذا يفيد معك... ماذا؟؟ واحسرتي على الوقت الذي ضيعته... وقد كنت متلهّفة لحضورك فضاعفت من جهدي حتى تنتهي اللمسات الأخيرة من تزيينه ليكون منسجماً مع تسريحة الشعر الجديدة... أنت لا تريد زوجة أنيقة... أنت تريد خدامة... طباخة... كل همّها أن تطبخ وتقدم لك أكلاً شهيًّا... أنت لا تعاملني كإنسانة... وتصرفاتك معي ينقصها الاحترام... لعلك تظن أن شهاداتك التي جعلت منك ذلك المسؤول الذي يجلس «على كرسي دوّار» تعطيك الحق في فرض سيطرتك عليّ أيضاً...

- ألا تبًّا لهذا الفستان... لولاه لكنت الآن أنعم براحة بال، وهدوء نفس، وصفاء عيش... هلاّ توقفت بربّك عن هذا الكلام السخيف...

- إن هذا الفستان الذي أزعجك لم يكلفك ريالاً واحداً ولم يرهق ميزانيتك، لذا لم يسترع انتباهك، وأنت تعلم من الذي اشتراه لي... ترى ما كنت فاعلة لولا مساعدة أبي والفلوس التي تجري بين يديّ... وإذا كنت قد نسيت فأنا لم أنس يوم أن طلبت منك شراء حفنة من الماس ماذا كان جوابك؟... أتذكر؟؟!!.. «إن دخلي لا يتحمل... ولا بد أن نضغط المصروفات خوفاً من العواقب... ولكي نبني مستقبلنا...» كم أود أن أعرف كيف تنفق راتبك وفي أي وجه من وجوه الخير تصرفه؟؟.. هل تظن أنّي جاهلة لا أدري ما يجري خارج البيت؟؟... لا... لم يعد في إمكاني السكوت ولم أعد أطيق أن أراك تصرف مالك على أمك وإخوانك من غير أن تقوم بتلبية مستلزمات وشراء حاجاتي... إن الرجل عندما يتزوج تصبح مسؤوليته محصورة في بيته وزوجته... أنا لا أقبل بعد الآن أن تبعثر راتبك عليهم، وهو أساساً لا يكفيني... ولا أقبل أن أراك تقضي معهم وقتاً من المفروض أن تقضيه معي... حتى هذه الدقائق التي انتظرت فيها قدومك فرحة جذلانة بالفستان يصدمني فيها إحساسك المتبلّد، وشعور اللامبالاة الذي يلازمك منذ أن تدخل هذا البيت... إن الوجه الضاحك والابتسامة العريضة... والحديث الشيّق كله لأختك... تلك الحمقاء البلهاء التي لا تحسن اللبس ولا تجيد من الكلام إلاّ طلب النقود... لقد ظننت أنّها و بعد خروجها من بيتي مجرجرة أذيال الخيبة وقد حصدتها الغيرة من أناقتي والحسد من مجوهراتي ستموت كمداً وسأنعم بلقياك دوماً ولكن... (وسكتت قليلاً)...

- (وقد ضاق صدره ونفد صبره) ولكن ماذا؟.. أكملي... صبّي غضبك - كالعادة- على أختي التي لم تسيء إليك يوماً... لأنها لا تعرف الإساءة ولأن خلقها عال ونفسيتها راضية... لم يكن الفقر يوماً يعيب الإنسان... هي فقيرة في لبسها ولكنها غنيّة في أخلاقها فاضلة في تعاملها مع الناس... لِمَ لا تقولين إن الغيرة قد نهشت صدرك لأنها شقّت طريقها إلى النجاح، وتيسّر لها التعليم مالم يتيسّر لك؟؟؟

— هــا هــا ... ومـاذا أفـادهـا الـتـعليم أو الشهادات وهي لا تعرف ماذا تلبس في الـصـبـاح ومـاذا تـرتـدي في المـسـاء؟؟ هل تذكر كم مرة أوقعتني أختك هذه في أحـلـك المـواقـف وأشـدهـا حـرجـاً عـنـدما كانت مقيمة معنا و يضمها مجلس مع صـديـقـاتـي و يـبـدأن الحـديـث عـن أحـدث مـا وصلت إليه الموضة ودور عرض الأز ياء... الحمد لله الذي خلّصني منها فقد كانت لا تفقه المسكينة شيئاً ممّا تـقـول... وكـأنـهـا تعيش في عصر جدتي... (وأردفت)... ولا أر يد أن أتذكر كـلام أمـك الذي لا يتغيّر ولا يتجدد... الطبخ... الغسيل... نظافة البيت... الدّعاء... التسبيح...

— لـقـد سـمـعـت هذا الكلام كثيراً — يا رجاء — ... وفي كل مرة أطلب منك عدم الـتـعـرض لأمّي وأختي... أنت تعلمين مدى حبي لهم... وتدركين أن الإساءة إليهـم هـي إسـاءة إلـيّ... وأنـا لا أر يـدك أن تز يدي من آلامي فمن السهل على الإنسان أن يؤذي غيره... فتنبّهي إلى ذلك...

— وإذا لم أتـنـبّه ماذا ستفعل؟... أنت تعرف أبي وتعرف مركزه و بيته مفتوح لي في أي لحظة... بل إنه يتمنّى أن أعود إلى حياة الرفاهية والعيش الرغد بدلاً من هذا الجـحـيم والـفـقـر الـذي تـسـمّـيـه حياة... وإذا كنت لا تستطيع أن تلبّي طلباتي وتـتـأفّـف منهـا، ولا تقدر على مخالفة أوامر أمك فلماذا لا تعمل على ز يادة دخلك مـن أوسـع الأبـواب وأقـصـرها؟؟... لماذا تزوجت من أسرة مرموقة..؟؟ لماذا لم تـبـحـث عـن زوجـة مـن طـبقتك ترضى بمقاسمة أهلك لقمتها...؟ حقاً... لقد كنت مجنونة عندما غرتـنـي شهاداتك... وسحرني شكلك... و...

— كـفـى... لم أكـن أعـلـم أنّـك تافهة... وأن والدك يشجّعك بغباء على تصرفات خاطئة... الفتاة عندما تتزوّج تنصهر شخصيتها مع زوجها... تقف معه وتسانده وتـسـاعـده... الحـيـاة بـيـنهما مـركـب يشق عباب البحر يصارع الموج والتيار حتى يـصـل إلى شـاطـىء الأمان... وإذا كنت لا تعرفين من الحياة إلاّ التّافه منها... ولا تفكر ين إلاّ في نفسك وملابسك وز ينتك... فبيت أهلك أولى لك، ويمكنك

أن تعودي إلى والدك ليز يّن بك مجلسه، فهناك في «صالون الجلوس» مكان خال من تحفة أو صورة ز يتية... فاذهبي واكملي ذلك الفراغ...

أما أنا... فسأعود إلى أمّي التي أسأت إليها بسببك... وسأحرص على أن تكمل أختي (الخنفاء) مواصلة تعليمها... وعندما يكبر أخي سأروي له تجر بتي المرّة معك لكي لا يتكرر الخطأ... ولكي يتجنب الشقاء واللسان المر.

* * *

الأستاذ علي



الأستاذ علي

كل شيء فيه يدل عليه... لم تغيره سنون ولا أحداث...

الصفرة التي تعلو وجهه وكأنها ناتجة عن سوء تغذية أو مرض عضال مزمن...

الملابس القديمة وإن كانت تبدو نظيفة، ذلك التلوث الذي بدأ مع مرور الزمن وكثرة الاستعمال يعلن سخطه ونقمته على اللون الأبيض، والكوت الأزرق الذي بهت لونه وأصبح يحاكي لون السحاب الداكن، أما العِمَّة التي تعلو رأسه فقد كساها الغبار وذرات التراب بحيث ضاعت معالم لونها الطبيعي.

لم يشاهد الأستاذ علي يمشي في الأسواق متّجهاً إلى المدرسة أو عائداً إلى البيت بظهره المحدودب قليلاً، إلاّ و بعض الكتب المدرسية في يديه، يمشي مسرعاً ويحيّي كل من يقابله في الطريق، و يبتسم لأهل الحارة عندما يدلج فيها من غير أن يتوقف أو يضيع دقائق في سفسطة أو سؤال بارد كما كان يقول... وكأن الأستاذ علي آلة حاسبة، أو ساعة حائط لا تقدم ولا تؤخر، فهويمشي على نظام دقيق تتحكم فيه الساعات والدقائق و... والثواني... النوم في وقت محدد... الأكل في ميعاد لا يختلف... دخول المدرسة صباحاً بالتّمام والكمال، وقوفه في الفصل حتى ولو سبق التلاميذ...

النظام... النظام... كلمة يرددها في الصباح قبل أن يلقي تحية الصباح على الأولاد... ويحب أن يرى النظام سائداً بين الصفوف وفي الدفاتر، وحتى في طلب الكلام أو السؤال...

كان حازماً في إدارة الفصل... قديراً في علمه، سلس الشرح في مادة الرياضيات، لا يُقَصّر في توضيح المسائل، ولا يبخل على التلاميذ بأية وسيلة للإقناع أو الفهم...

كان محل رضى إدارة المدرسة والمفتشين، وموضع تقدير زملائه المدرسين، وإن كان لا يشارك في النشاطات المدرسية أو الرحلات، لذلك فقد عرف عنه ذلك الجانب من الرفض إن أحد جادله في ذلك...

الأستاذ علي... يعيش في بيت قديم في مكة ورثته أمه عن والدها، و بعد موت زوجها طلبت إلى ابنها أن يشاركها السكنى ليؤنس وحدتها، وتسهر هي على قضاء حاجاته... ورغم تردده في قبول ذلك إلاّ أنها ألحّت عليه مراراً، فرضي مذعناً حتى لا يفقد رضاها...

كان بمقدوره أن يكسب ود كثير من الناس، وأن يصادقهم و يلقى منهم شعوراً طيّباً... فقد طبع على جبلة بسيطة، لا يحب التكلف، أو التظاهر، وكان أميناً، وفيًّا، مخلصاً... إلاّ أنّه آثر الشيخ صالح صاحب الدكان الذي يقع بجوار بيته وخصّه بصداقته، وقضاء أكثر الأوقات في صحبته، إمّا جلوساً عنده في الدكان، أو بالذهاب معاً إلى بيت أحدهما وكثيراً ما يمشيان سويًّا إلى المسجد الحرام ليؤديا صلاة المغرب والعشاء و يعود كل إلى بيته.

الشيخ صالح –هذا– رجل صالح زاهد، فقير الحال، كثير العيال، وهو يعرف الكثير عن حياة الأستاذ علي.. وكان يشعر بالأسى في قرارة نفسه وهو يرى العمر يجري والأيام تسابق بعضها في حياة الأستاذ علي.

— لقد رأيت فيما رأى النائم ليلة البارحة –قال الشيخ صالح– وسكت قليلاً.
— خيراً إن شاء الله... أجاب الأستاذ علي... وقد كسا وجهه اهتمام وشوق.
— حلمت أنك كنت تسير في وسط جماعة كبيرة يلبسون ملابس بيضاء وكأني أسمع أصوات غناء ودقات طبول...
— (أطرق الأستاذ علي) ثم رفع رأسه وقال: خيراً إن شاء الله... إمّا أنها المنيّة و... (سكت قليلاً...).

— وإمّا أن يكون موكب عرس...
— لا فرق بينهما. هذه في الدنيا، وتلك في الآخرة... «والآخرة خير وأبقى»...
— «والدنيا متاع... وخير متاع الدنيا امرأة صالحة»...
— امرأة صالحة... آه... وأين هي تلك المرأة الصالحة؟.. ألا ترى أن زماننا زمن العجائب؟؟؟ والعجائب كلها لا تأتي إلاّ من النساء!
— إنك لم تجرب، فحياة الرجل دون زوجة، حياة ضائعة، كما أن الزواج نصف دين الرجل.
— أتركني في همّي يا شيخ صالح، فأنت تعرف البئر وغطاءها.

وقام منصرفاً... وفي الطريق أخذ يفكر في الشهرين المتبقّيين على الامتحان... ودق قلبه فجأة... وأحسّ كأنه قد سقط بين ركبتيه... شهران فقط!!! يالّله!!!... ترى... هل يرغب ذلك التلميذ حسن ابن المرحوم المعلم يعقوب في دروس خصوصية كالعام الماضي... وإذا رغب... هل أقبل؟؟ ولماذا لا أقبل؟؟ ولكن... سأكون مشغولاً ومضغوطاً في هذين الشهرين الباقيين — كالعادة— إن طلبتي الذين رافقوني ورافقتهم من المتوسطة حتى السنة النهائية للتوجيهية معدودون. وأنا لم أقبل إعطاء دروس لهذا الولد الغبي وأخته — متوسطة الذكاء— إلاّ بعد إلحاح من أمّي التي تربطها صداقة مع أم ذلك الولد والبنت... أم الولد... وتوقف عن المشي... أمّه... وصار هاجس قوي يهتف داخل نفسه... أمّه... تلك المرأة اللطيفة المؤدبة المهذبة... إنّي لم أر وجهها إلاّ مرة واحدة، للمحة، لحظة، لم أتبين معالمها، وإن كان جسمها المرتوي، وطولها المربوع كفيلين بأن ينبآني بأنها امرأة في وسط عمرها... صبورة، قوية العزيمة، عكفت على تربية ولدها وبنتها بعد أن مات زوجها... تعمل ليل نهار كخياطة... وتصرف عليها من دخلها المحدود، لم تلجأ إلى خال أو إلى عم... وسمع صوتاً خفيًّا يقول: «هكذا النساء وإلاّ فلا»... وتذكر كيف أنه رفض أن يتقاضى شيئاً عن الدروس التي أعطاها للولد والبنت بعد أن عرف حالة الأسرة الفقيرة، وكيف أصرّت الأم وهي تكلمه من خلف الباب قائلة: «إن ما نقدمه لك شيء ضئيل، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة». وعندما أجابها شاكراً أنه لا يرغب في أخذ شيء منهم لأنه يشعر بأن هذا

واجب عليه، قالت: «لقد تعبت، و بذلت مجهوداً كبيراً مع حسن وأخته ونحن لا نعرف كيف نشكرك، فأرجو أن تتقبل هذا المبلغ البسيط...» ولكنه رفض في إباء وشمم...

مر بمخيلته ذلك الشريط سريعاً وهو في طريقه إلى البيت كأن الأحداث لم تتغير أمامه... وكأن صوت الأم يرنّ في أذنه وهو يحاول جاهداً أن يشحذ ذاكرته لترسم معالم وجهها الذي لم يشاهده إلاّ للحظة واحدة...

وضاعت تلك الذكريات اليتيمة من رأسه، وهو في خضم الدفاتر والتصحيح، وغاب عن عينيه طيف ذلك اليوم كالحلم الجميل الذي يداعب خيال النائم ليلاً، وعندما تنبلج تباشير الصباح يختلط أوله بآخره فلا يبقى منه إلاّ اليسير...

* * *

وعندما همّ الأستاذ علي بلبس ملابس النوم بعد أن خلع ثوبه والكوت الذي يلازمه، وعلق العمة على مشجبها الذي لم يعرف له ماضياً وحاضراً ومستقبلاً سوى تلك العِمَّة... جاءته أمّه ترجوه أن يلبس ملابسه و ينزل إلى السوق ليشتري عشاء شهيًّا للضيفة العزيزة التي جاءت لزيارتهم، وقالت الأم في استحياء: «مُطَبَّق... يا ولدي... مطبق» إن أم حسن لا تزورنا إلاّ مرة في العام، وقد أقسمت عليها بالبقاء والعشاء معنا إذ أنها تريد أن تحدثك في أمر هام... وتطايرت الصور أمام عينيه مرة أخرى، ولم يشعر بنفسه إلاّ وهو هابط في ركض نشيط كاسراً بذلك نظام حياته غير عابىء بما سيصيب أمسيته من إرباك وفوضى...

وحمل العشاء في يد مرتجفة، وأحسّ بنفسه تتجاوب مع قلبه و يده في الارتجاف... وهو يردد: «أمر مهم»... «أمر مهم»... ترى ما هو غير إعطاء دروس خصوصية لذلك الولد البليد وأخته. وقبل أن يفيق من تساؤلاته سمع أمه تشكره على سرعته في إحضار العشاء ولم يعرف للطعام مذاقاً... «أوّاه... ما أبردها!!.. هل قدمت الكلام في الأمر المهم قبل الأكل؟؟.. لماذا أمّي هكذا؟؟.. هي دوماً هكذا!!!.. الأكل عندها أهم من أي شيء في الدنيا...» ومرت لحظات خالها دهراً كاملاً...

وعندما أطل رأس أم حسن من الباب يتكلم في خفر ودلال... لم يسمع ما قالت... ولم يدر عمّاذا كانت تتكلم... بل ركّز نظره على ذلك الوجه والشعر الأسود

الفاحم وجدايله المدلاّة خلف جسمها الرّيّان... وقالت كلاماً كثيراً لم يتبين منه إلاّ الامتحان والدروس الخصوصية و... الولد والبنت..، وقطع عليه تأملاته صوت أمّه وهي تقول: «إن البنت قد كبرت هذا العام يا أم حسن، فكيف سيقابلها علي... إنّ هذا لا يجوز...» وأجابت أم حسن في ثقة واطمئنان... «إن الأستاذ علي ليس غريباً، فهو مثل والدها، وثقتي فيه كبيرة، فهو أولاً: ابنك. وثانياً: الأستاذ علي إنسان مهذّب، صالح، يخاف ربه. وثالثاً: سيكون معها أخوها حسن...» وضحكت أم علي وكأنّها توافق على كل ذلك... وسره أن يسمع ذلك منها وكأنها تطريه أو تمتدح خصائصه، وتمنّى لو استطاع أن يعبر لها عن شكره... ورأيه فيها... وجاءه صوت أم حسن يخصّه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه «هل أنت موافق يا أستاذ...» وقبل أن يجيب بكلمة... كان صوتها أقوى وأسرع منه «سننتظرك غداً بعد العصر...» وكأنها قررت الأمر.

* * *

وعندما همّ بوضع رأسه على المخدّة لينام... كانت أفكاره أسبق إليها من رأسه، وصورتها هذه المرة واضحة جليّة، بل إنه حمد لنفسه تطاوله بمد عنقه كي يرى من جسمها ما حاولت ستره وراء الباب...

وجه أبيض... أنف دقيق وإن كان أفطس قليلاً... فم واسع تتدلّى منه شفة مكتظة، أسنان يلمع بريق الذهب في أعلاها... شعر أسود، جدايل طويلة... جسم مكتظ... صوت قوي فيه حزم وثقة في النفس... وموعد — غداً — لإعطاء دروس خصوصية.. وأنا.. أنا.. الأستاذ علي ماذا قلت؟، ماذا كنت أنوي أن أقول؟ أين رفضي؟ وهل كان لزاماً عليّ أن أقبل وجدولي مليء... لا... لا... ليس مليئاً، لقد تركت فيه ثلاث حصص خالية... كنت أطمع في أن أعلّم ذلك الولد البليد... ثم رفع حاجبيه وأخذ يبحلق في الظلام... ولم ير شيئاً أمامه...

وطالت ليلته... وتمطّى نهاره، وهو قلق، حائر مضطرب «ماذا أريد؟؟ ولماذا كل هذا الاضطراب؟؟؟» ولم يصل إلى جواب شاف.

* * *

وعـنـدمـا طـرق الـبـاب جـاءه صوت حسن، وأطلّ وجه لا جديد فيه، تلك البلادة المرتسمة عليه، للّه ما أقسى البغض!. «وهنيهة مرت... سمع وقع أقدام نسائية...» لا بـد أن الـبـنـت قد كبرت فعلاً، وهذه مشيتها تدل على ذلك... «وفتح فمه عندما رأى أم حسن واقفة أمامه وعلى رأسها شرشف أبيض يلف جسمها فيز يده جمالاً، ومدت إليه يداً تصافحه، أهلاً يا أستاذنا... أهلاً...» وسحب يده بعد أن لامست يدها... ونظر إلى كـفّـه الـعـذري الـذي لم يـصافح كف أنثى من قبل، ولم يدر ماذا يقول سوى أنه هزّ رأسـه وتلعثم في الكلام، وأشاح بوجهه فالتقت عيناه بوجه الفتاة وكأنه لم يرها من قبل، فقد انتفض جسمها، وانفرد طولها، و برزت فيه معالم الأنوثة... فتخبطت محاجر عينيه يمنة و يسرة، وتفصد العرق من جبينه، وسمع دقات قلبه تشتد، وهرع إلى أقرب كرسي يرتمي عليه بعد أن صكت ركبتاه وعجزتا عن حمله...

دقـائـق سـر يـعـة مـرت ولـكـنهـا تزن أيامه ولياليه الماضية جميعها، ولحظات خاطفة سر يعة عبرت أمام عينيه فلم يجد لها معادلة أو ركيزة ر ياضية يعالج بها ارتباكه...

وأدار الـطـرف بين الاثنين ، وتـمـالـك نـفسه شيئاً فشيئاً، وجمع شتات نفسه وفتح الـكـتـاب و بدأ في إعطاء الدرس... ولمح انصراف الأم ونظرات ذابلة من عينيها وكأنها تـدك حـصـنـه... فـعـقـد حـاجـبـيـه، وأرسـل نـظرة صارمة ــ طالما أخافت الأولاد في الـفـصـل ــ إلى الـفـتـاة فـسـقـط نظرها على الكتاب، وخاطب حسن بأن يبدأ في قراءة الدرس واستمروا منهمكين في حل المسائل...

* * *

وعـنـدما انصرف... تلكّأ عند الباب، ولكنه لم ير أحداً فخرج محمّلاً بأسئلة كثيرة تـمـنّـى لوباح بسرها إلى أمه أو الشيخ صالح... ومرّ شر يط اليوم في مخيّلته لحظة بلحظة فـأسـلـمه ذلك إلى القلق، وأرق ليلته، وقام يتخبط في ظلام الليل واتّجه إلى أمّه بعد أن أفـاقـت يـسـألهـا عن اسم أم حسن ونظرت الأم إلى ولدها وحاجب عينها قد ارتفع حتى كاد أن يلامس شعر رأسها دهشة واستغراباً «تسألني عن اسمها في هذا الليل، لماذا؟؟ ألا يـمـكن أن تصبر حتى الصباح... هل أنت على ما يرام يا علي؟.. أتشعر بتعب؟ هل حـلـمـت حـلـماً مزعجاً؟؟»... ولكنه أصر على معرفة الاسم... وكأن عطشان في يوم قـائـظ شـديـد الحـرارة تحصل على كأس ماء بارد روى به غليله... كأن اسم سعدية قد

نزل على سمعه فأسكن تعطشه، وهدّأ من روعه...

وذهب إلى الفراش وهو يردد بينه و بين نفسه... سعدية... سعدية... ونام... ولكن أمه لم تنم... وعرفت أنّ في الأمر سرًّا، «ولكن علي لا يخفي عنّي أسراره... ومن أين له أسرار ذلك الفتى العانس المسكين؟.. ولكن... هل يمكن أن... لا... لا... مستحيل...» ودخلت المسكينة المعركة بلا سلاح، فلا تدري ما هو السر في ذلك، وإن كانت قد تخبطت حوله...

مر الأسبوع الأول من حياة الأستاذ علي سر يعاً على غير ما تعودت عليه أيامه، و بدأت علامات غر يبة تظهر على مسلكه الشخصي، وتصرفات غير طبيعية تحل محل الدقة والنظام اللذين عرفا عنه... لم يكن يدري ماذا ير يد، ولم يعرف بالتحديد ما هو مصدر ذلك الاضطراب، ولا مبعث القلق في نفسه.

عندما جلس على «كرسي الاعتراف» أمام الشيخ صالح بعد انقطاع طو يل بادره هذا على غير عادته...

— أقطع يميني إذا لم يكن في حياتك امرأة...

وعندما فتح فمه دهشة تساقطت الكلمات من فمه باردة كالثلج، ولم يحر الأستاذ علي جواباً... وخفض رأسه ونظرات منكسرة كنظرات فتاة أعلنت خطبتها أمام أفراد الأسرة... وكأنه يوافقه على ذلك...

وأطرق الشيخ صالح مليًّا... وكأنه يحاول ألاّ يجرح شعوره بعد أن رأى ما رأى من حيرة وألم على وجه صاحبه... ثم قرر أن يساعده في أمره...

— كل عقدة ولها حلاّل... وما يصيبك يابني آدم إلاّ ما كتب الله لك... فلا تبتئس يا صديقي... وكل شيء مرهون بوقته...

و بعد أن أخبره بسرّه في دقائق قليلة وكلمات مقتضبة قال له:

— هل تراني أخطأت في الاندفاع وراء شعوري؟؟ ألا ترى أنّني أعيش في وهم كاذب. إنّني منذ أن رأيت أم حسن أصبحت حياتي كلّها كتاب اسمه أم حسن، مسألة ر ياضية بحتة لا تحلها إلاّ نظر ية واحدة هي أم حسن... أنا وأم حسن سنكوّن معاً نظر ية تطابق المثلثين.

عـنـدمـا هـرع إلى داره كـان عـزمـه صـادقاً على الزواج من أم حسن، وكانت نفسه طموحة إلى أن يضمّه وإيّاها بيت واحد وأن تشملهما سعادة ورفاهية مشتركة..

أخذ والدته من يدها إلى ركن منعزل في البيت وسألها:

— أتذكرين ليلة أن سألتك عن اسم أم حسن؟؟..

— نعم... وهل يمكن أن أنسى ذلك؟

— مـنذ ذلك الوقت وأنا أفكر وأفكر.. لقد ملكت سعدية كل إحساسي وشعوري، لم يعد لي هم سوى التفكير فيها وفي مستقبلنا معاً...

ورفعـت الأم حاجبيها — كعادتها — دهشة... وأرادت أن تتكلم... ولكن علي لم يمهـلهـا... «لـقـد قـررت أن أضـع نهـايـة لحـيـاة الـوحـدة التي أعيشها وأن أتزوج من سعدية...»

وكأنّ صاعقة أصابت أمّه، فانتفضت واقفة والغضب يملؤها...

— تـتـزوج ؟؟.. ومـن سـعدية ؟؟!! يالك من ولد عاص... مسكين... أتريد أن تـتـزوج مـن امـرأة عـازبة في سن أمك؟.. هل جننت؟؟؟ هل انتهت الدنيا؟؟ هـل خـلـت مكّة من النساء ولم يبق فيها غير سعدية؟؟؟. قل لي أريد أن أتزوج، وأنا أخطب لك أحلى البنات... أنت ولد أبله.

وقـعـت كـلـمـات أمّه في أذنيه كالحجر... وبدا له أن الموقف لا يتحمّل مناقشة أو محـادثـة مـع أمّه... فهي دائماً تنتصر في النهاية إذا ما لوحت له بالرضى... والمصير الذي ينتظره في الدنيا والآخرة إذا هو عصى أمرها...

وأسـرع إلى غرفته يدفن آلامه وأحلامه في وحدته... ولم يطق صبراً فلجأ إلى صديقه الـشـيـخ صـالـح... وانـفـجر باكياً كطفل فقد أهله... وعندما أخذ يهدأ قليلاً نظر إليه صاحبه ومرارة في عينيه:

— أتـتـرك مـصـيرك تتحكم فيه أمك؟؟؟ هل تضحّي بحياتك ومستقبلك وحبّك من أجـل أن تـرضـي غـرور امـرأة؟؟؟ أيـن الـرجـولـة فيك؟؟ أين شخصيتك؟ أين إصرارك على الزواج منها؟

بدت كلمات الشيخ صالح وكأنها غريبة عليه... هل يقف موقفاً حازماً و يرمي كلام أمّه خلف ظهره و يقدم على الزواج منها؟؟ هل يحقق رغبته و يترك أمر رضى والدته للزمن فلعلها تغيّر رأيها بعد ذلك؟؟؟

لم يدر ماذا يفعل... وخرج يتخبّط في مشيته.

وعندما رجع إلى بيته في وقت متأخر من الليل لم يجد عشاءه حاضراً كما عوّدته أمّه بل وجد حوائجه وملابسه وأشياءه كلّها في ركن خارج غرفته... وقبل أن يفيق من دهشته أطل رأس أمّه من غرفة أخرى وقالت في حزم:

— هذه حوائجك خذها ولا ترني وجهك بعد الآن... أنا لا أر يد ولداً عاقاً يعيش معي... لقد أفنيت عمري معك وعندما بدأ الشيب يكسو رأسي، والضعف يغزو جسمي، بدأت أنت تبحث عن المتاعب. اذهب... اذهب... اغرب عن وجهي...

وسمع صفقة الباب ترن في أذنيه كرعد قاصف... وهزّه الموقف...

وهرع إلى باب غرفة أمّه وركع على ركبتيه وهو يجهش بالبكاء:

— أمّي ... أستغفر الله إن أنا أردت أن أعصي لك أمراً... أستغفر الله إن كنت أردت أن أغضبك... سوف أنسى الأمر... سوف لا أفكّر بعد الآن في زواج أو في أي امرأة!!!...

واشتد بكاؤه وتشنجه... وأراد أن يقف فلم يستطع... فزحف إلى غرفته وهو يرتجف كمن أصابته حمّى...

وفي الظلام... أخذ يحلق في الأفق البعيد وهو يردد... «نعم... أمي أولاً... رضاها قبل كل شيء...»

وعندما ألقى تحية الصباح على صديقه الشيخ صالح كان قد اكتسى مسحة الجد التي تعوّدها قبل أن يلتقي أو يفكّر في أم حسن وهو يردد فيما بينه و بين نفسه «علينا نحن المدرسين أن نشقى لنسعد الآخرين».

* * *

شيءٌ ما...


دياب

شيءٌ ما...

«إذا كانت الحياة في نظر الناس لا تساوي شيئاً... فهي بالنسبة لي كل شيء...

وإذا كان نعيم الدنيا فانياً... فإني أتمنّى أن أنعم به طوال عمري... لا يهمني كم سنة أعيش؟.. وإنما يهمني كم متعة أنالها!! وكم لذّة أعيشها!!..

ما أجمل الحياة!! وما ألذّها... وما أمتعها!!...

جهول ذلك الإنسان الذي تتوفّر له إمكانيات الحياة وتتحقق له أسباب السعادة ولا يحاول أن يمتع نفسه و يدخل السرور على قلبه!!.

إنّنـي لا أضيع لحظة من لحظات العمر دون أن أعمل جاهداً لأخلق منها سعادة وهناء...

لا أفكّر في غدي ما دام يومي حافلاً بالمسرات...

ولا أبالي بالصعاب إذا كان وراءها فرح وطرب».

كانت هذه فلسفته... وكانت هذه طريقته إلى الحياة!!... سار حسّان على تلك النظريات، و بنى عليها حياته ومنهجه... غير عابىء بالمتاعب والعقبات، ولا مكترث بأحد، ولا يهمّه إن كان في تحقيق تلك الغايات مخاطرة أو في نيلها تهوّر أو اندفاع...

لم يكن حسّان مستهتراً أو انتهازيًّا... وإنّما كان جريئاً ومندفعاً نحو لذّات الحياة... الحياة بكل ما فيها من معنى... نشأ وترعرع في أسرة عرفت بالثراء والشهرة والسمعة الطيبة في الأوساط الاجتماعية... درس وتعلّم ونال قسطاً كبيراً من الثقافة

والتحصيل... طاف أنحاء العالم... وكان ذكيًا، طموحاً، وسيماً، يتمتع بجسم فاره طويل مكّنه من إجادة ألعاب رياضية مختلفة... لطيف المعشر، حلو الحديث، ميالاً إلى الدعابة... تبدو في عينيه ملامح الجد والعزيمة... وكانت هناك ابتسامة ما تعلو شفتيه... وكان محبوباً ومرموقاً من قرنائه... وموضع احترامهم.

لم يكن سعيه وراء اللذة وجريه خلف المتعة إلاّ نتيجة طبيعية لظروفه الاجتماعية والمادية التي حققت له الكثير منها و يسّرت له جميع رغباته...

ومع هذا... فقد كان يحس بأنه يفتقد شيئاً ما... شيئاً لم يستطع معرفته أو تحديده شيئاً... غلب على تفكيره، وجعله يندفع أكثر دون أن يصل إليه أو يكتشفه.

شغل نفسه بالتجارة فازدادت ثروته ونمت تجارته وتوسّعت ممتلكاته... ومع هذا لم يجد في تجارته سلوى... أو في ربحه عزاء...

سلك طريق الخير... فأنفق أمواله على الفقراء والضعفاء وأوجد مسكناً للأرامل واليتامى... فأحسّ براحة نفسية مؤقتة ما لبث أن عاد يبحث عن ذلك الشيء الذي يفتقده...

استجاب لنداء القلب... فتزوج من المرأة التي أحبها، وأفنى روحه في روحها، وصهر جسده بجسدها، وعاش أياماً وليالي يسيطر عليه التفكير في الشيء الذي يفتقده... دون جدوى!!

لجأ إلى تسليته الوحيدة وهوايته المفضلة... ركوب البحر... واستقر على ظهر المركب زمناً... وكان يمضي الساعات والليالي يعمل بفكره الثاقب و بصره النافذ في معرفة كنه البحر وأسراره وعمقه... لعله يصل إلى ذلك الشيء الذي يبحث عنه و يعذبه، أو لعله ينسى... ينسى قلقه وعذابه وحيرته التي أخذت تشتد وتزداد يوماً بعد يوم... ولكن البحر صامت... عميق... ضنين... وصار يجرب كل الوسائل التي تعطيه المتعة وتساعده على النسيان... دون جدوى...

وغدا الهمس الداخلي في نفسه صراخاً... واشتد الصراخ... و بدأ الصراع الشديد في نفسه يقوى و يشتد... فأصبح يطيل التأمل والتفكير:

«ماذا أريد؟؟

ماذا ينقصني؟؟

إذا كنت أمتلك أسباب السعادة... فلماذا لا أشعر بها؟؟ ما هي السعادة إذن؟؟... مال... جاه... ثقافة... شباب... حب..؟!!

إنني مازلت —ولا أزال— أبحث عن شيء ينقصني... أفتش عن أمر أضاع منّي عمري... أقض مضجعي... أوشك أن يفقدني عقلي... حياتي...».

بقي حسّان في متاهاته، والأيام تمر، والظروف تتقلّب... والفلك يدور... وفي كل دورة يقف ليصيح... «ماذا أريد»؟؟ وأوشكت السنون أن تسرق من عمره الكثير، وخطا الشيب رويداً رويداً... ولكن بقي في قلبه خيط متين يشده إلى المتعة واللذة فيغرف منها ما يشاء وينهل منها ما يريد... وظل السؤال المحيّر يعربد في مخيّلته... فلم يجد له جواباً... ولا لقلقه مأمناً، ولا لفكره مستقرًّا...

وبمرور الأيام... اشتدت أزمته... وازدادت حيرته... واسودّت الدنيا في عينيه... فانكمش على نفسه، وانعزل عن المجتمع الصاخب الذي كان يعيش فيه... وأخذت الوردة اليانعة التي كانت تتربّع على شبابه تذبل... فرحل إلى جزيرة صغيرة ليخلو إلى أفكاره وتأمّلاته... ويناجي البحر... والبحر من حوله صامت... عميق... ضنين...

وبدأ يحسب الأيام التي مرت.. والشهور التي فنيت، والسنين التي انقضت...

«كنت سعيداً... وكان حظي وافراً... وكل جوانب حياتي ممتلئة بالجمال والذكريات العذبة... لم أحسّ بالحرمان... ترى: ما الذي شدّني إلى القلق والحيرة؟؟...

هل هي المسؤولية؟؟.

تجاه من؟؟

لقد كنت على قدر المسؤولية في كل شيء... حتى المجتمع الذي أعيش فيه قدمت له خدمات جليلة...

أهي القناعة والزهد؟؟...

لا... إني مازلت أنهل من بحر اللذات ولم أرتو بعد!!

لقد كنت أظن أن هذه الفترة من التساؤلات والقلق والحيرة التي لازمتني في الآونة الأخيرة ما هي إلاّ شعور بالذنب ... أو سحابة صيف ثم تنقشع، ولكنها أخذت تزداد قوة وتزداد عنفاً يوماً بعد يوم.

لعل ضميري قد استيقظ مؤخراً ؟!...

ولكن ... لِمَ يستيقظ وأنا مقتنع بأن ما أعمله هو تلبية لنداء قوي ينبع من أعماق أعماق نفسي...»...

... ولمعت عيناه ببريق خاطف وهو يحملق في الأفق البعيد... وأمواج البحر تتهاوى أمام ناظريه... وتهمس في أذنيه بأصداء وكأنها قادمة من عالم آخر... وسرى في جسمه تيار لم يشعر به من قبل... وأخذ يردد... «نفسي... نفسي... أعماق أعماقها...».

إذن...

ولم يستطع حسّان أن يكمل... وأوقف أفكاره... وقطع تأمّلاته ووقف مشدوهاً:

«لقد عشت حياة الضياع... حياة مليئة بالمتعة واللذة والمرح لأخفي وراءها ضعفي... لأستتر فيها عن نفسي... لأهرب من واقعي...».

وصاح داخل نفسه هاتف قوي رددت أصداءه أمواج البحر... ولم يستطع المقاومة... وخطا إلى الشاطىء خطوات ثقيلة... وجال فيما حوله بعين زائغة حائرة... وكأن البحر يناديه... وكأن الموج يفتح له ذراعيه ليحتضنه في حنان ورقة وعذوبة... وسمع صوتاً من أعماق نفسه... أعماق أعماقها... يحثه على المضي... يدفعه إلى السير... على الإرتماء في أحضان البحر.

ووقف ساكناً... يسترجع في لحظات أيامه ولياليه... ويجترّ ذكرياته القديمة:

«لقد أخذت حظي من الدنيا... واستمتعت بملذاتها ومطايبها... فوداعاً أيتها الحياة... وداعاً...»

«إنني أحببت البحر ولم أستطع اكتشاف سره ولا معرفة كنهه... أما وقد عرفت نفسي... فسأغوص في الأعماق لأكتشف أسرار البحر وعظمته...»

وخالقك ماني مفارقك



وخالقك ماني مفارقك

الناس مقامات... وهم في دنياهم طبقات...

وكلٌّ ارتضى بما قسمه الله له من رزق، وقنع بما أعطاه. وبذلك تهيأت لكل إنسان الراحة والطمأنينة.

كان عم سالم «بياع المقلية» في دكانه الصغير بالقرب من بيتنا أكبر مثل على ذلك، وأحسن من تنطبق عليه هذه النظرية... ورغم ذلك فهو دوماً عابس كئيب... لا يعرف المرح طريقاً إلى وجهه، ولا يفتر ثغره إلاّ على ابتسامة هزء وسخرية، فهو يسخر من نفسه، ويهزأ من كل شيء تقع عليه عيناه ولا يعبأ بالدنيا إن هي أقبلت أو أدبرت... وقد يبدو أحياناً متبرماً من نفسه منعزلاً عن الناس.

إلاّ أنّي كنت أحس إحساساً عميقاً داخلياً أنّ في جوف هذا الرجل قلباً طيباً... فخصالهتدل على طبيعة سمحاء رغم تظاهره بالصرامة والشدة وحدّة الطبع. وكنت أميل إليه لسبب خفي، وكان هو يأنس إليّ دوماً.

وعندما أشتري منه مقلية بنصف ريال... لا ينسى أبداً أن يزودني بحبة أو اثنتين «وصاية» كما يقول، ويودعني بكلمة حلوة، ولا ينسى أبداً أن يردد كلمته (انتبه لنفسك يا واد).

عندما سألته مرة، لماذا تضيق بنفسك وبمن حولك ومن البشر أجمعين؟

أجاب في صوت مليء بالتأسّي والحزن... وكأنّي أسمع صوته لأول مرة... «روح في شغلك وخليني في حالي»... وعندما أصررت عليه مرة طالباً منه أن يقص

علـيّ حكـايتـه محاولة منّي في معرفة سرّه الدفين... جلسنا أنا وهو بعد أن أوشك على الانتهاء من مقليته وأخذ يحكي:

— «آه يـا ولـدي... دي قصة طويلة... لا... قول... قصص... شوف (ومسك بيده اليمنى شعرات من لحيته الصغيرة البيضاء)... شوف شعري صار أبيض كيف وأنا لسّا شباب... تدري من إيه؟؟. من نكد الدنيا... الدنيا دي يا ولدي عميا... وأنا حظي كمان فوق هادا كله أسود... ولما ينطبق النكد والحظ الأسود على الإنسان وما يفارقوه أبداً قول عليه السلام»...

أردت أن أقاطعه ولكن نظرة صارمة من عينيه جعلت الكلمات تتحجّر في حلقي... وأخذ يستطرد...

— «من صغري وخالقك وأنا تعيس، تقول اتخلقت أنا والشقاوة في يوم واحد... تقول أنا وهي في سباق متواصل...»

(ونظر بعيداً وكأنه يستجمع شتات أفكاره)...

«أمي ماتت وأنا صغير، أخذتني ستّي، وربّتني... راح أبو يا الله يرحمه اتزوج واحدة ثانية، الله لا يوريك... الرحمة منزوعة من قلبها، ولسانها تقول مرزاب حق السطوح لما ينفك، خصوصاً لما تزعل، ولا فتحة الفرن حق عم يحي اليماني»...

وسكت قليلاً... كأنه يستذكر شيئاً..!!

«إيش كنت باقول يا ولدي... إيوه... نهايته... ربّتني ستّي، وكانت الله يرحمها ويحسن إليها على قد حالها... من يوم ما كبرت وصرت أفك الحرف... أرسلتني إلى المعلم معتوق البنّا عشان أشتغل معاه حجر وطين... وآخر النهار أجيب في يدي كم قرش...»

«ما أكثر عليك... مشى الحال وربنا فتح عليّ، وصرت كل يوم أتعلم شوية شوية وقلت في نفسي بكرة تصير «يابا» والاّ «قراري» و يصير لك شَنَّة ورَنَّة... مافقت من الحلم... إلاّ واليابا معتوق ميت الله يرحمه و يتغَشّاه بالرحمة... فضلت زي ما تقول كده شهر والاّ شهرين عاطل من غير شغل...»

ـ«أروح لابو يا يطردني من البيت و يقول: «روح خلي ستّك تأكِّلَكْ، ولما يشتد

بي الجوع ولا ألاقي لقمة أسدّ بيها حلقي، ترسلني ستّي لمرات أبو يا عشان تأكّلني... وبدال ما تأكّلني لحمة ورز وعيش، ترقعني ديكا العلقة اللي ما أنساها.

واشتغلت.. واتصكعت، ما خليت صنعة ولا مِهْرة... الاّ وما اتعلمتها... شيء عرفته وحبيته، وشيء والله ما حبيته وصرت أشرد منه...».

«يوم ورا يوم مات أبو يا وترك لي كم قرش راحت الحرمة المصيبة مستولية عليها... صحت، ونحت، و بكيت، ولا في أحد يجاوب...».

«رحت اشتكيت للضابط اللي في الكركون جنبنا... قال لي يا واد موعيب تشتكي وحدة وليّة زي أمك... هيّا روح انقلع من وجهي، وأنا أرسل لها مرسول من عندي... المهم... أصلح... أبرح... طلعت لي بنص المبلغ... قلت عال... نعمة و بنتها،ورحت أجري اشتر يت لستّي الدواء اللي تبغاه وشو ية قرَنْبَعْ للبيت، والباقي طرت بيه للحلقة اشتر يت بيه كوم ليمون وكوم فلفل أخضر وجرّ يت الخيشة اللي على باب بيتنا وفرشتها في الأرض وصرت أصيح ليمون بن زهير وفلفل منعنش... وعديت المكسب آخر النهار لقيته يشجع على البيع والشراء...».

«وتوسع الحال شو ية شو ية من البسطة إلى الدوار، وصرت أسرح كل يوم بالمقسوم... ما خليت خضرة ولا فاكهة من حقت الطائف إلاّ و بعت واشتر يت فيها، وفتح عليّ الفتاح، وقلت أبشر يا واد بالفرج... لكن... مين... وفين..؟».

- «وصحيت لقيت ستّي ممددة جنبي... بكيت... بكيت يا ولدي... وكانت أول مرة وآخر مرة أبكي فيها زي الحرمة، كانت ستّي... الله يرحمها، كل شيء في حياتي... وكان أملها أنّها تشوفني عر يس ومتهنّي وفي بيت يجمعني مع بنت الحلال...».

- «وماتت المسكينة دون أن يتحقق أملها... وكنت عارف أنه ماراح يتحقق لا أملها ولا أملي...».

«وأقول لك إنه كمان... أقول اسودّت الدنيا في عيني... ماهي سودة خِلْقَة من زمان...».

« نهايته... مشيت زي أي جمل على ظهره حمل كبير... واتخبّطت، واتسكعت، ووقفت على أهلي وأقاربي وكان نصيبي والعياذ بالله الطرد والرزالة والبهدلة...» .

« وضقت بالحياة، وصعبت عليّ عيشتي، وصرت أهَدْرِشْ مع نفسي... خلاص... غَلَّقت الدنيا... ما عاد في رحمة في قلوب الناس... ما عاد في ناس يخافوا ربّنا و يعطفوا على المساكين والفقراء والأيتام»....

« الله يرحمك يا ستّي... لمين أشكي همّي، ولمين أفتح صدري... وكرهت الدنيا... والناس... وكرهت حتى ثوبي اللي عليّ...»

وسكت عم « سالم» لحظة اختلست فيها نظرة إلى وجهه... ولو كان المداد يستطيع أن يرسم صورة للكآبة مجسمة تبرز فيها الملامح الذائبة لما وجد أفضل من وجه عم سالم... كانت كل عضلة في وجهه تختلج، وتتراقص عليها علامة أو علامات من الحزن...

— « إيه يا ولدي —وجذب نفساً عميقاً وأخذ يحكي— قابلني جارنا —الله يرحمه و يبشْبِشْ عظامه في الجنة— الشيخ أبوزامل. ومسكني من كتفي عندما حاولت أن أهرب منه... وقال:تعال يا سالم، انتا خايف منّي والاّ إيه..؟ كنت جريئاً، ولا أخاف من أحد، ولكن في تلك الساعة دوّرت على كلمة وحدة أرد بيها على الشيخ أبوزامل مالقيت، سَكَتْ وجرني من إيدي زي الطلى وأخذني على البيت، بيته هُوَّا... وقال لأهله: أعطوه ثوب من ثياب علي، وخليه يرمي هذا الهباب اللّي لابسه،وكان لونه أسود مع أنّي أتذكّر إنّي لما لبسته كان لونه رمادي...».

« واشتغلت عند عمّي أبوزامل صبي في الدكان... أشيل وأحط في أكياس الحَبْ والدُّخَن والضُّرة والرز،إلين صارت لي دبرة في ايدي وكتوفي... وكنت مبسوط ولكن... هه... ما قلت لك من بدري إن الشقاوة ورايا ورايا... طلع الواد علي أشقى من إبليس. كل يوم يتحرش بي، و يعيرني... و يلطخ بالكلام... ويهين كرامتي...».

«طلعت في رأسي يوم من الأيام وقلت له... أنا صبي... صبي، ما هو عيب لكن كرامتي فوق كل شيء، وإن تكثّر عليّ بعد كدة أورّ يك شغلك...».
«الواد علي كان خفيف وزي الفلفلة... رقعني قَلَمْ ما شفت إلاّ والدنيا دارت بي ولفّت، وحسيت كأنه نار صبت على عيني، وفي سرعة البرق شالني فوق زي الطُّرة ورماني على الأرض... إخْص... قلت لنفسي... طولك طول البغل، و يرميك واد طوله شبر ين... هجمت عليه زي الأسد... وما أدري إيش صار بعدين.. كل اللي شفته دم ينزف من رأسه...».
«وأعطاني العم أبو زامل حسابي وقال لي كلام لدحّين يرن في أذني وخالقك... آه... الله يرحمك يا أبو زامل... صحيح اللي ما يربّيه أهله يربّيه الزمان... وأكلتها وسكت... وثاني يوم لقيت نفسي في الشارع...».

«وأردت أن أعرف ماذا قال أبو زامل... إلاّ أن العم سالم لم يخبرني رغم توسلاتي... وسكتّ عندما قال: «لا تفتح الجرح مرة ثانية، وخليني ساكت...».
— «وكبرت يا سيدي....
وكبرت في عيني الدنيا... وكثرت في رأسي الأفكار... وصرت زي ما يقولوا الناس المتعلمين... متفلسف... كل شيء عندي له سبب، وكل شيء له بداية وله نهاية، وصرت أروح حلقات التدر يس في الحرم... أسمع ايش يقول سيدنا العالم.
وأهُو... من دا، ومن داك، ومن هنا، ومن هناك صرت أفهم وأقدّر مصايب الزمان، وعرفت أنّي وأنا الفقير اللّي ما عندي حق العشا، أحسن من غيري الغني اللّي في جيبه ميّة وألف بس ربّنا حارمه من الصحة والعافية...».
«وقلت يا واد أحمد ربّك... إنتا برضو ربّنا معطيك القوة فقوم اشتغل سافر... أضرب الأرض... ومسكت مِسحاة ورحت على القبور أحفر.. وأضرب الأرض... و بعد كم شهر صرت قبورجي، وعجبتني هذي الصّنعة أول الأمر... هاذا الرجال الغني الوجيه اللي كان يوقف على بابه العز يز والهين،والاّ ذاك القصر الكبير اللّي كان عايش فيه، يتمدد قدّامي في الحفرة ز يه زي الثاني والثالث والرابع اللي ما كان في جيبهم هللة، هنا... في الحفرة دي اللي حفرتها

آنا بإيدي يتساوى الجميع، فأنا وهم سواء... وحدة، وفقر، وإيمان بالله... ولما يجي عليّ الليل آخذ مسحاتي، واشتري لي حلاوة وعيش وجبنة، واجري على حجرتي... اترك ورايا نظرات الغش والخداع التي كنت أشوفها صريحة ومخفية في عيون أقارب الميت...».

«الله... ما أحسنها عيشة!.. وما أحلاها دنيا ورضيت بيها!.. ولكن...».

وصدرت من عم سالم زفرة قوية أحسست لهيبها يلسع وجهي..« ولكن ماذا يا عم سالم... صحت، أكمل بالله عليك».

— «أكمل إيه يا ولدي... قوم روح شوف شغلك...».

ما عرفت نفسي أنّي أحببت عم سالم وتمنيت لو أنّي أعيش معه كما أحببته في تلك اللحظة... كان حديثه يشدني وكان شر يط حياته يمر أمام عيني في بساطة و يسر كما لو كان شر يطاً سينمائيًّا... وكان صادقاً في كل كلمة تخرج من فمه، صوته يعلو و ينخفض حسب الموقف وجديته... وحلفت عليه إلاّ أن يكمل الحديث... وتابع متأوّهاً:

— «... حتى في القبور، ومن بين الحفر التي كنت أدفن فيها الميتين، وأدفن فيها همومي معهم لاحقني النكد، وتبعتني تعاستي التي لازمتني طول عمري... جا النعش... وكان الفقي يقرأ القرآن، وسمعت أحدهم يصيح:« إيش تشهدوا عليها»... وكان الجواب : «من أهل الخير والصلاح إن شاء الله»... ومسكت بالميتة ونزّلتها القبر، وقبل ما أحط الطُّبقان وأغطيها بالبرسيم والحشيش الأخضر لمحت وجهها... وكأن مطرقة كبيرة نزلت على رأسي... وحسّيت كأن قلبي ينط من مكانه... هِيَّه والله العظيم هِيَّه... مرات أبو يا... المرأة اللي ذوّقتني السم، وحرمتني من عطف أبو يا وما كانت ترضى تعطيني لقمة عيش... هِيَّه... هِيَّه العقربة اللي ما كانت تخلّيني أدخل بيتنا بيت أبو يا و بيتي... ورفعت رأسي، ولقيت المودعين أعطوني ظهرهم... و بقيت أنا وهِيَّه لوحدنا... ما في رقيب علينا سوى المتجبر القهار اللي يعلم ما في القلوب و يدري

ما تضمره النفوس من خير وشر... ومسكت بالمسحاة في إيدي.. وقلبي يدق بشدة و بسرعة، وأحسست أن يدي ترتعش، وجسمي مبلّل بالعرق... آه... ما أحلى الانتقام منها!.. وسوّلت لي نفسي أن أضع أصابع يدي العشرة في عينها، وفي فمها، وأن أسحب لسانها وأقصه... وأقطّعه إرباً إرباً... كنت يا ولدي أريد أن أشفي غِلّي منها حتى لو كانت ميّتة».....

— « ولكن » .....

— «ها ... ولكن ماذا يا عم سالم؟.. قل لي بالله عليك... ماذا عملت؟».

— « ماذا عملت... خرجت من الحفرة، وجلست على أقرب حجر كبير بجوارها وحطيت رأسي بين يدي وغمضت عيني... كنت أفكر... وسرحت، وسمعت صوتاً من بعيد يقرأ القرآن... «إنّك ميّت وإنّهم ميّتون» وقمت مفزوعاً ونظرت إليها... إلى وجهها وكان أبيض شاحب ما فيه حركة. وقمت... سديت الحفرة... دفنتها من غير ما ألمسها... ودفنت معها أحزاني... وقلت: يا واد... الميت مات، وخليك أكبر من ذلك، و بكرة تموت زيّها...».

« ورجعت إلى البيت بعد ما رميت المسحاة في القبور وحلفت ما عاد أرجع إليها ثاني مرة إلاّ وأنا محمول على النعش».....

« تدري يا واد إيش صار بعدها».....؟؟؟؟

ونظرت إليه مرة أخرى، فوجدت في وجهه بشاشة لم أرها من قبل... واستطرد:

— «تعرف إنّي اتعلمت من داك الموقف ما تعلمته في العمر كله... وخالقك إنّي من يومها اتغيرت... اتغيرت نفسيتي وصرت لا أبالي إن جات الدنيا والاّ راحت، إن ابتسمت والاّ عبست... طيب فين ديكا السلطة والجبروت اللي كانت فيها مرات أبويا... فين داك اللسان اللي كان يمتد و يشتم زي الرشاش... مين كان يقدر يرفع عينه فيها والاّ يقول لها عينك في رأسك...».

« هناك... في القبور اتعلمت أنه لا مال ينفع، ولا جاه يفيد، ما يفيدك يا بني آدم إلاّ عملك الصالح، وإن متاع الدنيا كلّه فان، وما يصيبك يابو شعر أسود وعين فارغة إلاّ قطعة قماش ووصلة قطنة وحفرة صغيرة من نعيم الدنيا كله،

طيب... وأنا مالي ودوشة الدماغ وحرق الدم، ما أبات متهني وأصحى أغني....».

«وخرجت إلى الدنيا وكأني مولود من جديد... ورحت ألَقِّط رزقي من هنا وهناك وأنا آخر ما يكون الانبساط...إلين بدأت أفكر في بنت الحلال اللي تقبلني وأكمل بيها نص ديني، وتساعدني...

نهايته ... وما أطوّل عليك....

لقيتها .... ».

« واتزوجت ... وكنت حاطط في بالي ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وما معناه:« استبشروا بالمرأة والدابة والعتبة» ... وقلت بلكن يا واد تجيك ويجيك معاها الخير وتتبدل أحوالك وتلاقي مين يهرج معاك و يسلّيك...

«وآه يا زماني آه... ما قلتلك أنا والشقاوة اتولدنا سوا... دي يا ولدي مصيبة ونزلت على رأسي، مدفع رشاش اتصوّب عليّ. مافي يوم وخالقك إلاّ وما صبّحتني فيه بغارة أو زعيق... تنام تزعق، تقوم تزعق، تجلس تزعق... ليه... ما أعرف « كنت فين وجيتني منين... طلعت لي من أيَّةْ خَايْعَة... حظي أسود اللي طببني فيك» ، كانت تعيرني «يا فقير، يا قبورجي، ياندل» ... «يا عرة الرجال» ، وغيره وغيره من الموشحات اللي كنت أسمعها منها...

«طيب وأنا أعمل إيه يا ولدي...أسبّها... ما يكفي، أخسرها تزيد... أطلّقها... ما يهون عليّ واحنا لساعنا ما رحنا ولا جينا...»

وفي يوم زودتها شوية، سبّتني، ولحقت أبو يا وجد جدودي رحت هاففها قلمين، ولحقتها بشلوت من رجلي راحت الحرمة راكعة على ركبتها ومرمية على الأرض، قلت في نفسي... رحت في مصيبة يا واد... شوية... ورفعت رأسها والدموع في عينها...

« كده يا حبيبي تضربني» ... قالتها في صوت رقيق أول مرة وخالقك أسمع كلمة حبيبي من فمّها...

بس، وعرفت السر...

كل يوم أصبِّحها بعلقة، وأمسِّيها بعلقة، سارت الحرمة تمشي زي الساعة...

وصارت الوليّة متعلّقة فيّ، إن غبت عن عينها تدوّر عليّ، وإن حبيت أسهر بره ما تخليني،وشغل نسوان، إخص على دي دنيا، وإخص على كده حريم

طيب الحمار يا ولدي إن كَوِّدْت عليه يرفس، وهادي إن شديت عليها تحِنْ....

أقول لك الصحيح، ما عجبتني الشغلة... يَدِّي فِتْرت وجسمها سار كله أمار يات من الضرب......

و يوم ورا يوم صغرت هِيَّا في عيني، واحتقرت أنا نفسي، وصار ضميري يؤنبني... ومع مرور الأيام صار الضرب عادة، وإن ما شَبَّعْتها ضرب تشَبَّعْني سب وشتم... وقلت لنفسي ما تخلص من دا غلب، ومن دي عيشة...

وراحت بيت أهلها.....

وفضلت لحالي، مبسوط... أغنّي على كيفي، وأنام وأصحى على كيفي، وأهو... الدنيا ماشية.....»

وسكت عم سالم، وأطبق على طرفي عينيه — كعادته عندما يغرق في فكرة عميقة— وفجأة...... صاح :

— «إنتا متزوج يا واد؟؟»......
— قلت... لا... يا عم سالم... ولكن لماذا تسأل؟؟
— قال... «إن اتزوجت... إصحا تضرب الحرمة... إصحا... خذ نصيحة مجرب... وهيَّا قوم انقلع عن وجهي... روح شوف شغلك...».

وقمت أمشي ... وأفكاري تائهة في دنيا عم سالم الغريبة... أحقًّا لم ير سعادة في حياته؟؟

أحقًّا لم يذق طعم الراحة والهناء منذ أن ولدته أمّه؟؟؟... أوّاه... كم في هذه الدنيا من بؤساء.... تعساء.....

* * *

وازدادت محبة عم سالم في قلبي، وصرت لا أتضايق من عبوسه إن كلّمته أو ألقيت عليه تحية المساء ولم يجب فقد عرفت سرّه...

وعرفت أن الابتسامة الحقيقية منبعها القلب... وقلب عم سالم قد مات من زمن بعيد.

* * *

الفهرست

إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : **الكتاب العربي السعودي**

صدر منها :

الكتاب		المؤلف
• الجبل الذي صار سهلاً		الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية		الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية		الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا		الدكتور سليمان محمد الغنام
• الظمـأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
• الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى	(قصة طويلة)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور علي طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين؟		الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	(دراسة وتحقيق)	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية	(شعر)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام		الشيخ حسين باسلامة
• وقفـة		الدكتور عبد الله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن		الأستاذ عبد الله الحصين
• علم إدارة الأفراد		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
• الإبحار في ليل الشجن	(شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجهاً لوجه		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الحضارة تحدٍّ		الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف		الأستاذ فؤاد صادق مفتي

• الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
• نبض ...		الأستاذ عبد الله جفري
• نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
• السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الأصداف	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز		الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية		الدكتور إبراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين		الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
• نقر العصافير	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته		الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز		الأستاذ عبد الله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها		الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• خواطر جريئة		الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ
• السنيورة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة	(شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• جسور إلى القمة		الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
• الحمى	(شعر)	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• قضايا.. ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز		الأستاذ محمد علي مغربي
• الشوق إليك	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين سراج
• كلمة ونصف		الأستاذ محمد حسين زيدان
• زيد الخير		الأستاذ عبد العزيز الرفاعي
• قضايا سياسية معاصرة		الدكتور فؤاد عبد السلام الفارسي

تحت الطبع :

• عام ١٩٨٤ لجورج أورويل	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مشواري مع الكلمة		الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
• وجيز النقد عند العرب		الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• لن تلحد		الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
• الإسلام في نظر اعلام الغرب		الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• قصص من طاغور	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• أيـامي..		الأستاذ أحمد السباعي
• ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
• مدارسنا والتربية		الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
• دوائر في دفتر الزمن	(مجموعة قصصية)	الأستاذ سباعي عثمان
• من حديث الكتب		الأستاذ محمد سعيد العامودي
• الموزون والمخزون		الشيخ أبو تراب الظاهري
• ألحان مغترب	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• هكذا علمني وردزورث		الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
• وحي الصحراء		الأستاذ عبد الله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود
• لجام الأقلام		الشيخ أبو تراب الظاهري
• أصداء قلم		الأستاذ محمود عارف
• قراءات في التربية وعلم النفس		الأستاذ فخري حسين عزي
• إليهـــا	(شعر)	الأستاذ حسين سراج
• حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
• غرام ولادة	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين سراج
• أحاديث		الدكتور عبد الرحمن بن حسن النفيسة
• نقاد من الغرب		الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• شيء من حصاد		الأستاذ حامد مطاوع

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منها :

العنوان	ملاحظة	المؤلف
• الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية		الدكتور مدني عبد القادر علاقي
• الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق	(باللغة الانجليزية)	الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جمجوم الدكتور محمد عيد
• النمو من الطفولة إلى المراهقة		الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبد السلام
• الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا		الدكتور عبد المنعم رسلان
• النفط العربي وصناعة تكريره		الدكتور أحمد رمضان شقلية
• الملامح الجغرافية لدروب الحجيج		الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
• علاقة الآباء بالأبناء	(دراسة فقهية)	الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
• مبادىء القانون لرجال الأعمال		الدكتور محمد إبراهيم أبو العينين
• الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية		الأستاذ هاشم عبده هاشم
• مشكلات الطفولة		الدكتور محمد جميل منصور
• شعراء التروبادور	(ترجمة)	الدكتورة مريم البغدادي
• الفكر التربوي في رعاية الموهوبين		الدكتور لطفي بركات أحمد
• النظرية النسبية		الدكتور عبد الرحمن فكري الدكتور محمد عبد الهادي كامل
• أمراض الأذن والأنف والحنجرة	(باللغة الانجليزية)	الدكتور أمين عبد الله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق

تحت الطبع :

العنوان	ملاحظة	المؤلف
• الأدب المقارن	(دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
• هندسة النظام الكوني في القرآن		الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
• المدخل في دراسة الأدب		الدكتورة مريم البغدادي
• الرعاية التربوية للمكفوفين		الدكتور لطفي بركات أحمد

مطبوعات تهامة
PUBLICATIONS

صدر منها:

• حارس الفندق القديم		الأستاذ صالح إبراهيم
• دراسة نقدية لفكر زكي مبارك	(باللغة الانجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
• التخلف الإملائي		الأستاذة نوال قاضي
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة العربية)	إعداد إدارة النشر
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	
• تسـالي		الدكتور حسن يوسف نصيف
• مجلة الأحكام الشرعية		الشيخ أحمد بن عبد الله القاري
	(دراسة وتحقيق)	الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
• النفس الإنسانية في القرآن الكريم		الأستاذ إبراهيم سرسيق
• خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية)	الأستاذ علي الخرجي
• واقع التعليم في المملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	الدكتور عبد الله محمد الزيد
• صحة العائلة في بلد عربي متطور	(باللغة الانجليزية)	الدكتور زهير أحمد السباعي
• مساء يوم في آذار	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد منصور الشقحاء
• النبش في جرح قديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ السيد عبد الرؤوف
• الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام		الدكتور محمد أمين ساعاتي
• الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك		الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
• العقل لا يكفي	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي الشيخ
• أيام مبعثرة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ فؤاد عنقاوي
• مواسم الشمس المقبلة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي قدس
• الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي		الدكتور عاطف فخري

تحت الطبع:

• الموت والابتسامة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
• رحلة الربيع		الأستاذ فؤاد شاكر
• الوحدة الموضوعية في سورة يوسف		الدكتور حسن محمد باجودة
• ماذا تعرف عن الأمراض ؟		الدكتور إسماعيل الهلباوي
• الأسر القرشية.. أعيان مكة المحمية		الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
• ملامح وأفكار مضيئة		الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• أضواء على نظام الأسرة في الإسلام		الدكتورة سعاد إبراهيم صالح

- وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- سوانح وخطرات — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
- القرآن.. ودنيا الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- أدباؤنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي بركات
- الزمن الذى مضى (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح إبراهيم

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزي
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
- الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود
- الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- القصة فى أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله باقازي

تحت الطبع :

- نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- افتراءات فليب حتى، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز
- الامكانات النووية للعرب واسرائيل — الأستاذ صدقة يحي فاضل
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحي رضوان

كتاب الناشئين

وطني الحبيب

صدر منها :

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

تحت الطبع :

- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- حكايات للأطفال — الأستاذ عزيز ضياء
- قصص للأطفال — الأستاذة فريدة فارسي

كتاب الأطفال

لكل حيوان قصة ـ الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

صدر منها :

• القرد..	• الذئب	• الدجاج
• الضب	• الأسد	• البط
• الثعلب	• البغل	• الغزال
• الكلب	• الفأر..	• الحمار الوحشي
• الغراب	• الحمار الأهلي	• الببغاء
• الأرنب	• الفراشة	• الوعل
• السلحفاة	• الخروف	• الجاموس
• الجمل	• الفرس	• الحمامة

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
  By F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat
  Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia

المطابع العربية Arabian Printers
تليفون ٦٧١٧٦٧٧ - جدة



المؤلف

- ولد في مكة المكرمة وتلقى بها تعليمه الابتدائي والثانوي.
- حصل على شهادة الليسانس من جامعة القاهرة، ودبلوم علاقات عامة من لندن.
- بدأ عمله بالصحافة عام ١٣٧٧هـ، ولايزال يُساهم بقلمه في مختلف الصحف المحليّة حتى الان.
- أصدر أول مجلة رياضية متخصصة عام ١٣٨٠هـ، واستمر يُصْدرها حتى صدور نظام المؤسسات الصَّحفية.
- عمل في أجهزة الدولة في مجالات التعليم والمال والإعلام.
- اشترك في العديد من المؤتمرات الدوليّة، ثم طلب إحالته إلى التقاعُد.
- ساهم في النشاطات الرياضيّة، وشارك في إدارات أندية الوحدة والنصر والأهلي.
- انتخب أول رئيس لمجلس إدارة أول مؤسّسة تجريبية لحُجاج أوربا وأمريكا.
- صدرت له رواية اجتماعية بعنوان (لاظل تحت الجبل) تدور أحداثها في مكة المكرمة.

المطبعة العربية